

جامعة عبد الرحمان ميرة - بجاية -

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

عنوان المذكرة:

السخرية في الأدب العباسي

كتاب "البخلاء" للجاحظ نموذجاً

مذكرة مقدمة لاستكمال شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب عربي قديم

إشراف الدكتور:

* آية الله عاشوري

إعداد الطالبتين:

* تينهينان يمون

* ليلة سعيد

السنة الجامعية: 2018/2017م

إهداء

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(105)}[التوبة: 105]

إلهي لا يطيب الليل إلا بشكرك، ولا يطيب النهار إلا بطاعتك، ولا تطيب اللحظات إلا بذكرك،

ولا تطيب الآخرة إلا بعفوك، ولا تطيب الجنة إلا برؤيتك.

إلى من أرضعتني الحنان، إلى رمز الحب وبلسم الشفاء، إلى القلب الناصع ...

والدتي الحبيبة

إلى من كلله الله بالهبة و الوقار... إلى من علمني العطاء بدون انتظار... إلى من أحمل اسمه بكل افتخار... أرجو من الله أن يمد

في عمره فترى ثمارا قد حان قطفها بعد طول انتظار وستبقى كلماتك نجوما أهتدي بها اليوم وغدا وإلى الأبد ...

والدي العزيز

إلى الروح التي سكنت روحي ... زوجي سمير

إلى القلوب الطاهرة الرقيقة والنفوس البريئة إلى ريحان حياتي فرح ونور الهدى .

إلى من بها أكبر وعليها أعتمد ... إلى شمعة تنير ظلمة حياتي أختي ليندة.

إلى من بوجودهم أكتسب قوة ومحبة لا حدود لها ... إلى من علموني معنى الحياة

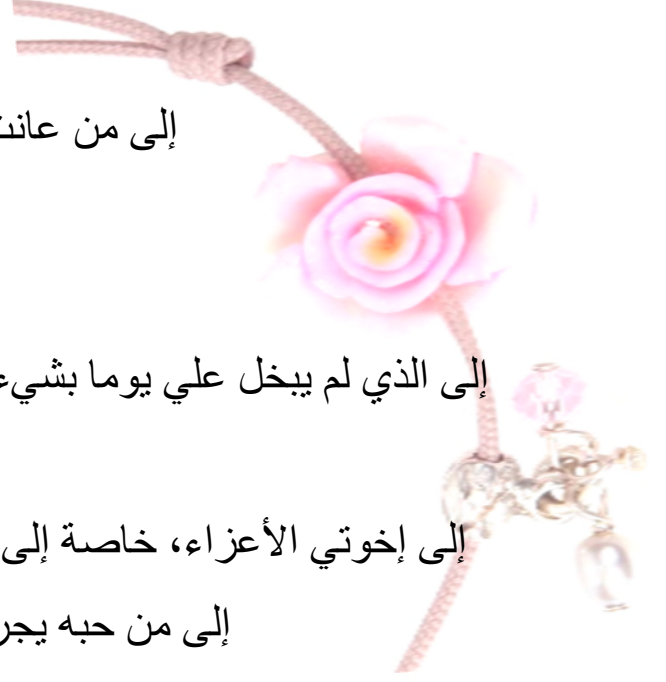
جدي الغالي رشيد وأمي الثانية حورية

إلى عائلتي الثانية عائلة كموم (أُمِّي نادية، عمي مراد، ماريّا)

إلى كل الذين أحبوني وأحببتهم (محمد، سامية ، سعاد ، طاوس...)

تينهينان

إهداء



إلى من عانت الصعاب لأصل إلى ما أنا عليه اليوم ، إلى القلب
الحنون

... أُمي الحبيبة

إلى الذي لم يبخل علي يوما بشيء ووهبني كل ما يملك، من علمني النجاح والصبر
... أبي العزيز

إلى إخوتي الأعزاء، خاصة إلى النور الذي ينير حياتي أخي الصغير رابح

إلى من حبه يجري في عروقي ... خطيبي

إلى كلّ عائلتي ... دون أن أنسى زميلاتي

*لِيا*ة*



تشكرات



اللهم لك الحمد والشكر حتى ترضى، ولك الحمد والشكر إذا رضيت،

ولك الحمد والشكر بعد الرضى،

أنت من خلقتنا وصورتنا كما تشاء بإتقان، وأنت من هديتنا بفضلك لشرائع

الحق والإيمان،

وأنت من أسبغت علينا من نعمك بلا عدّ ولا حسابان،

وأنت من يسّرت لنا الأسباب وأوضحت لنا المقاصد فانجلت بتبيان،

فلك المحامد كلها بالخواطر والجوارح واللسان،

ولك الشكر يا ذا الجود والإنعام والإحسان.

ثم خالص شكرنا إلى من أشعل شمعة في درب عملنا ...

من وقف على المنابر وأعطى من حصيلة فكره لينير دربنا ...

الدكتور آية الله عاشوري

إلى كلّ من أهدى إلينا عيوبنا، وبصّرنا بها.

تينهينان وليلة

مقدمة

لا يخلو مجتمع من تداخلات حضارية، وصراعات ثقافية، وتباينات اجتماعية وثقافية وفكرية وتاريخية، كتلك التي حدثت في العصر العباسي أيام الامتزاج العرقي وتداخل الأجناس البشرية من الشرق والغرب، وتزواج الثقافات، إذ امتد الزحف لأكثر من ستة قرون، مما انعكس على كل مناحي الحياة، إذ انعكس هذا التنوع والتداخل الثقافي والمعرفي على القيم والإنتاج الإبداعي، ليعكف المثقفون والأدباء والبلغاء والشعراء على الكتابة أو النظم عن حياة الملوك والحكام والخلفاء والولاة من ذوي السلطان من العرب والعجم، متراوحة نظراتهم وتوجهاتهم بين الولاء والبراء، والرضا والسخط، ولعل ما ورد في كتب الجاحظ عامة وكتابه "البخلاء" خاصة، إنما هو تصوير للواقع المعيش، وانتقاده لمجموع تصرفات على وجه السخرية والتهكم، ولعلها رسالة تهكمية منه إلى غير العرب، علما أن الكرم هو الأصل الممدوح، والبخل هو الدخيل المذموم في العرف العربي.

وقد كان اختيارنا لهذا الموضوع دون غيره عن رغبة وفضول كبيرين في الكشف عن سحر البيان عند الجاحظ، وسبر أغوار أسلوبه الساخر المتميز، وهو العارف بخبايا اللغة العربية وخفاياها، إنه الأديب النحرير، والبلّغ المتمكن، هذا بالإضافة إلى نفص الغبار عن تراثنا الغني بدقيق العلوم، ونفيس المعارف.

وقد حاولنا من خلال بحثنا هذا الإجابة على بعض الأسئلة التي اتخذناها كمعالم نسير على نهجها، نذكر منها:

- ما هي سمات الأدب العباسي؟ وما مدى حضور الأدب الساخر فيه؟
 - كيف تجلت السخرية في الأدب العباسي عامة، وفي أدب الجاحظ خاصة؟
 - كيف استطاع الجاحظ من خلال كتابه "البخلاء" معالجة ظاهرة البخل كخُلُقٍ تفتش في عصره بأسلوب ساخر تهكمي؟
- انطلاقا من هذه التساؤلات، وسمنا بحثنا ب: السخرية في الأدب العباسي، كتاب "البخلاء" للجاحظ أنموذجا.

وقد قسمنا بحثنا هذا إلى مدخل عنوانه بـ: العصر العباسي-ملامحه وسماته، حددنا من خلاله عصر العباسيين أو العصر العباسي، ومن ثمّ التغيرات الأدبية في ذلك العصر، وذكر سمات المجتمع العباسي.

أما الفصل الأول فعنوانه بـ: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي، تناولنا فيه مفهوم السخرية والفكاهة لغة واصطلاحاً، وعلاقة السخرية بالهجاء والتهكم والكوميديا، ثم ذكرنا أسبابها، أساليبها، صورها ووظائفها، ثم عرجنا على النثر العباسي وتطور السخرية والفكاهة فيه.

وأما الفصل الثاني المعنون بـ: السخرية في ضوء كتاب "البخلاء" للجاحظ، صدرناه بلمحة عن حياة الجاحظ، ومن ثمّ تأثير البيئة على أدب الجاحظ الساخر، ثم تناولنا البخل والشُّحّ، لنختتمه بالسخرية في ضوء كتاب "البخلاء".

وأنهينا بحثنا بخاتمة ذكرنا فيها أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال مسارنا البحثي.

توسلنا في بحثنا هذا الإجراء الوصفي التحليلي الذي ارتأينا أنه الأمثل والأصلح لمثل هذه الدراسات، وذلك من خلال تعاملنا مع بعض القصص الواردة في كتاب "البخلاء" للجاحظ، وتحليلنا لما جاء فيها، ووصفنا لما تضمنته من قيم.

من أهم المراجع التي اعتمدنا عليها في إنجاز هذا البحث مجموعة من الكتب نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر:

- الجاحظ (عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي أبو عثمان)، البخلاء، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط2، 1419هـ.

- نعمان محمد أمين طه، السخرية في الأدب العربي، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر، مصر، ط1، 1398هـ/1978م.

- بوحجام محمد ناصر، السخرية في الأدب الجزائري الحديث، مطبعة العربية، د.ط، 2004م.

- شوقي ضيف (أحمد عبد السلام)، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، بيروت، ط13، د.ت.

- السيد عبد الحليم محمد حسين، السخرية في أدب الجاحظ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام، الجماهيرية الليبية، ط1، 1397هـ/1988م.

- فاروق سعد، مع بخلاء الجاحظ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط6، 1413هـ/1992م.

وقد اعترضتنا في بحثنا هذا بعض العراقيل -حالنا في ذلك حال كل باحث-، فعملنا جاهدين على تخطيها -ولله الفضل والمنّة في ذلك-.

وحسبنا من عملنا هذا أننا قد اجتهدنا، فما كان من صواب فالحمد لله على توفيقه لنا، وما كان غير ذلك فمن أنفسنا ومن الشيطان.

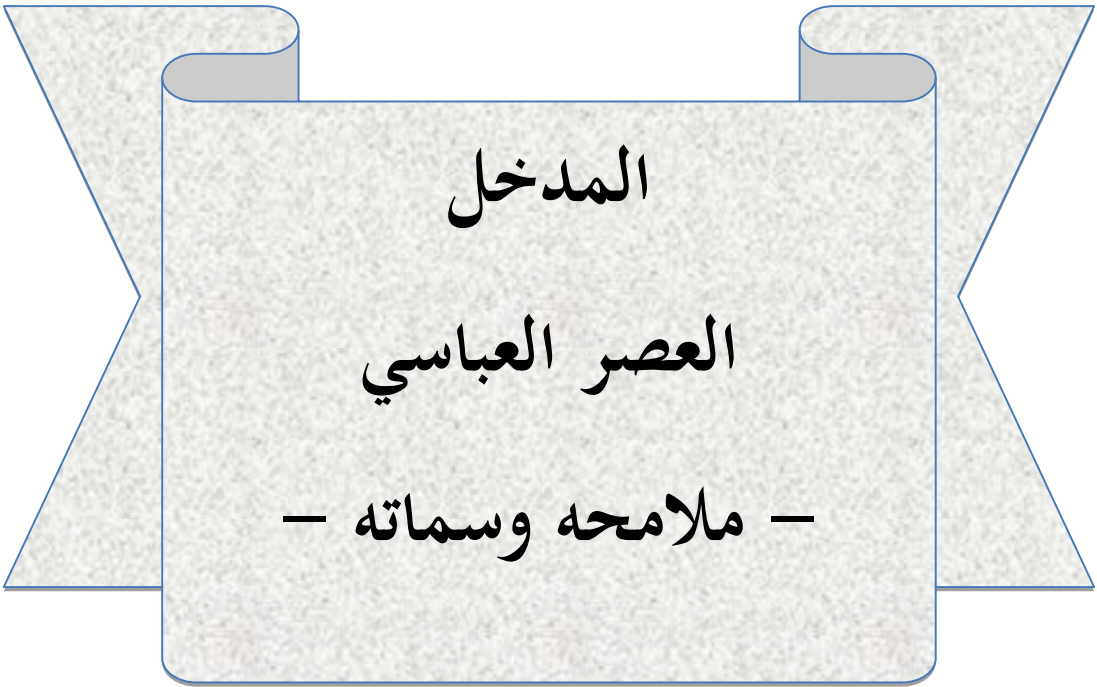
نعلم علم اليقين أننا لم نأت بالناذر، ولكن حسبنا أننا فتحنا الطريق أمام الباحثين من أجل العودة إلى تراثنا بما يزخر به من علوم نفيسة، ومعارف قيمة.

نتوجه في الختام بجزيل الشكر -بعد الله عز وجل- إلى أستاذنا المشرف الدكتور آية الله عاشوري، الذي سهر على توجيهنا في هذا العمل من بدايته إلى نهايته، والذي لم يخل علينا بنصائحه وإرشاداته القيّمة، ووقته الذي منحنا إياه.

حفظك الله يا أستاذنا وزادك علما ونورا.

تمت بعون الله يوم: 2018/06/03م

تينهينان و*ليلة سعيد*



المدخل

العصر العباسي

– ملامحه وسماته –

1. عصر العباسيين أو العصر العباسي:

يستمر إلى سقوط بغداد في يد التتار سنة 656هـ / 1258م. ويقسم بعض المؤرخين هذا العصر قسمين: العصر العباسي الأول ويمتد نحو مائة عام، والعصر العباسي الثاني ويستقل ببقية العصر، ومن المؤرخين من يقسمه ثلاثة أقسام، يبقى فيها على القسم الأول بنفس الاسم، أما العصر العباسي الثاني فيقف به عند سنة 334هـ / 945م، وهي السنة التي استولى فيها بنو بويه على بغداد والتي أصبحت الخلافة العباسية منذ تاريخها اسمية فقط، ويمتد العصر العباسي الثالث إلى استيلاء التتار على بغداد. وقد يقسم بعض المؤرخين هذا العصر العباسي الثالث قسمين؛ فيقف بالقسم الأول عند دخول بعض المؤرخين هذا العباس الثالث قسمين، فيقف بالقسم الأول عند دخول السلاجقة بغداد 447هـ / 1055م، ويستقل القسم الثاني أو العصر العباسي الرابع ببقية العصر. وباستيلاء التتار على بغداد يبدأ العصر الرابع ويستمر إلى نزول الحملة الفرنسية بمصر سنة 1213هـ / 1798م.¹

كان بنو أمية شديدي التعصب للعرب والعربية، فكان كل شيء في دولتهم عربي الصبغة، وكانت جمهرة العرب منتشرة في كل مكان امتد إليه سلطانها فلما قامت الدولة العباسية بدعوتها، لم تجد لها من العرب أنصاراً وأعواناً مثل من وجدت من الفرس وأمم الأعاجم، فاكتمحت بهم دولة بني أمية وأسست دولة قوية كان أكثر النفوذ فيها للموالي. فاستخدمهم الخلفاء والأمراء في كل شيء من سقاية الماء إلى قيادة الجيوش والوزارة، وابتدأ شأن العرب السياسي يتضاءل من ذلك الحين شيئاً فشيئاً واختلطوا بالأعاجم وكان من المجموع شعب ممتزج لغة وعادة وخلقاً فأثر ذلك في اللغة لفظاً ومعنى، وشعراً ونثراً كتابةً وتأليف ولم يظهر ذلك بالطبع في جميع الممالك بنسبة واحدة بل كان في أواسط آسيا أظهر منه في مصر

¹ شوقي ضيف أحمد عبد السلام، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف، د.ط، د.ت، ص14.

الشام. أما حال ممالك الغرب والأندلس صدر في هذا العصر فلم يبعد كثيراً عما كان عليه في العصر الماضي ثم سرت إليها عدوى تقليدها للمشاركة في أكثر الأمور.¹

خلفت الدولة العباسية دولة بني أمية، واتخذت بغداد حاضرة لها تاركة شؤون الحكم للفرس الذين قضوا قضاء مبرماً على الأمويين، وبذلك أصبحوا هم السادة الحقيقيين، فلم يعد العرب يتصدرون مكان السيادة، ولم تعد لهم أرستقراطيتهم، كما كان شأنهم في العصر الأموي، فقد أبعدوا غالباً عن المناصب الكبرى في الإرادة والجيش، وأصبحوا لا يستطيعون الدخول على الخليفة، إلا إذا لهم الموالي من الفرس، أمثال البرامكة وبني سهل، ممن أمسكوا بزمام الأمور. وبذلك عمت الروح الفارسية في الحياة العباسية، حتى الخليفة نفسه لم يعد كأسلافه الأمويين يمثل شيخاً كبيراً من شيوخ القبائل العربية، بل أصبح خلفاً لملوك الفرس الساسانيين، فله وزراؤه وحجابه وبلاطه، وله نفس التقاليد الفارسية في التشريفات، ويعيش معيشة مترفة، وإذا كان أبو جعفر المنصور عرف بالاعتدال في الاتصال بهذه الحياة الجديدة، فإن من خلفوه أقبلوا عليها إقبالا شديداً.

وكان تقدم الفرس على العرب في شؤون الحكم سبباً في اصطدام هائل بين العرب والموالي، وسرعان ما ظهرت نزعة الشعوبية.²

أخذ جماعة من علماء العجم، وأدبائهم يطعنون في عرب الجاهلية لبعدهم عن أسباب الحضارة والثقافة، وطعنوا عليهم أيضاً في كل ما يتصل بهم من فضائل خلقية ومن خطابة، وغير خطابة منوهين بفضائل الفرس وغيرهم من شعوب الحضارات القديمة، وما اشتهرت به من عمارة وفنون وعلوم، واتخذ ذلك شكل نزاع ضخم، فألفت كتب كثيرة في مثالب العرب، وكتب أخرى كثيرة في فضائل الفرس وغيرهم، ومن أشهر هؤلاء الشعوبيين في العصر العباسي الأول أبو عبيدة معمر بن المثنى، وأصله من يهود فارس، وهو من أشهر العلماء في اللغة

¹ أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ج2، أشرفت على تحقيقه وتصحيحه: لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت، د.ط، د.ت، ص155.

² شوقي ضيف أحمد عبد السلام، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف،، بيروت، ط13، د.ت، ص121.

والأخبار، وكان يتعصب للفرس على العرب، فألف في فضائل الأولين كتابًا، أما الآخرون فألف كتابا في مثالبهم، وشاركه في كتابة المثالب والتأليف فيها الهيثم بن عدي، وممن اشتهر بهذه النزعة سهل بن هارون، كاتب البرامكة ثم أخذ أصحاب خزانة الحكمة للمأمون، ومنهم علان الشعوبي وكان وراقا في خزانة المأمون، وقد جمع في كتابه "حلبة المثالب" جملة المطاعن على القبائل العربية في زمن الجاهلية، ولم يقف أنصار العرب صامتين إزاء هذه النزعة، فقد أخذوا يردون على أصحابها، ومن أشهر من اضطلعوا بهذا الرد مدافعين عن العرب الجاحظ في فاتحة الجزء الثالث من البيان والتبيين، وصنع صنيعة ابن قتيبة في رسالة له سماها كتاب العرب.

ترجم الفرس كثيرًا من تراثهم إلى العربية، ومن أشهر من قاموا بهذا الصنيع عبد الله بن المقفع وآل نوبخت، وبخيل إلى الإنسان أنه لم يبق أثر في اللغة البهلوية إلا ترجم إلى العربية سواء تعلق بتاريخ الساسانيين أو بآدابهم، ومن ثم بالغ بعض المحدثين فيما كان للثقافة الفارسية من أثر في العقل العربي، ومن الغلاة في ذلك إنيسترانسييف، فقد أكبر في كتابه "الأثر الإيراني في الأدب الإسلامي" من شأن هذه الثقافة، وتأثيرها في العرب معتمدًا في ذلك على ما يحصيه ابن النديم في فهرسته من أسماء الكتب الفارسية المترجمة، وهي كثيرة هناك كثرة غامرة، إلا أن هذه الكثرة يجب أن نحذرهما، فالمسألة مسألة كيف لا كم، وربما كانت أهمية هذه الثقافة لا ترجع إلى ما ترجم للفرس أنفسهم، وإنما ترجع إلى ما ترجم إلى لغتهم عن غيرها، فقد كانت وسيطا مهما في نقل كثير من آداب الهند، ومعارفها مثل كتاب كليلة ودمنة الذي نقله ابن المقفع، وكذلك كانت وسيطا في نقل بعض الكتب اليونانية مثل منطق أرسطو الذي ترجمه عبد الله بن المقفع، أو ابنه، على أنه ينبغي أن نشير إلى أنه دخل عن طريق الترجمة من الفارسية كثير من تعاليم الفرس الدينية القديمة عند زرادشت وماني ومزدك، بل ترجموا كتاب زرادشت المسمى أفسستا كما ترجموا كتباً أخرى لماني ومزدك، مما كان سببا في ازدياد جماعة الزنادقة، وكانوا يتظاهرون بالإسلام، ويبطنون أديانهم المجوسية القديمة، وكانت عين الدولة يقظة، فأقام

المهدي ديوانا خاصا بمحاكمتهم، وقتل ابن المقفع وكثيرون غيره. وقد انبرى علماء الكلام، وخاصة المعتزلة يردون على هؤلاء الزنادقة، وما زعموا من إثنية ومذاهب دهرية.

ولا تقل أهمية الثقافة الهندية عن الثقافة الفارسية، إذ ترجم العباسيون عنها كثيرا من الحكم والقصص، ومن الفلك والرياضة والطب، وقد ترجم إبراهيم الفزاري للمنصور كتاب الفلك الهندي المعروف باسم "السند هند" يعاونه في ذلك بعض علماء من الهنود، واجتلب يحيى بن خالد البرمكي مجموعة من أبطائهم إلى بغداد، وأمرهم بنقل بعض كتب الطب الهندية، ويظهر أنه كان هناك مترجمون كثيرون يحسنون النقل عن السنسكريتية، ومما نقلوه صحيفة في البلاغة احتفظ بها الجاحظ في بيانه، ومن المؤكد أن كثيرا من تأملاتهم فيما بعد الطبيعة أخذ طريقه إلى العربية، وكان له صداه الواسع في الصوفية الإسلامية، وقد لعبت نظريتهم في التناسخ، وبعض مذاهبهم الدهرية مثل السمنية دورا هي الأخرى في نزعات الزندقة والإلحاد.

على أن هاتين الثقافتين الهندية والفارسية لا تقاسان في أهميتهما إلى الثقافة اليونانية التي دخلت في العربية لهذا العصر، وكانت مبنوثة في مدارس جند يسابور والرها وحران ونصيبين، كما كانت مبنوثة في الكنائس الشرقية والغربية، وكان للسوريان الفضل الأول في نقل محتوياتها إلى العربية، وبدأ ذلك منذ عصر المنصور، إذ استدعى من جنديسابور أسرة بختيشوع، ليتولى بعض أطبائها علاجه، وجدت هذه الأسرة كما جد غيرها من السوريان في ترجمة الفلسفة اليونانية، وبلغت هذه الترجمة أوجها في عهد المأمون، فقد اتخذ في قصره خزانة الحكمة، وأخذ يضم إليها كنوز المعرفة العربية والأجنبية، وشجع على النقل والترجمة، وطلب من آسيا الصغرى، ومن بيزنطة نفسها المصنفات اليونانية، وفي عهده لمع اسم أبي يوسف يعقوب الكندي أول فلاسفة العرب المهمين، وأحد العقول الكبرى في تاريخ العالم.¹

¹ انظر، المرجع السابق، ص 124.122.

2. التغيرات الأدبية في العصر العباسي:

يمكن إرجاع جميع هذه التغيرات إلى ثلاثة أمور: "الأول" ما يتعلق بالأغراض التي تؤديها اللغة، "الثاني" ما يتعلق بالمعاني والأفكار، و"الثالث" ما يتعلق بالألفاظ والأساليب.

1.2 أغراض اللغة:

لما قامت الدولة العباسية وتشبه الخلفاء بملوك الفرس في أكثر أمور السياسة والمعيشة، وحاكتهم العامة في ذلك بتقليد أمثالهم من طبقات الأعاجم، تناولت اللغة في المشرق أغراضاً لم تعهد فيها من قبل بنقل علوم تلك الأمم وآدابها وعاداتها وطرق معيشتها. ثم تناولت هذه الأغراض في الغرب بعدئذٍ بفرق يسير فكان من تلك الأغراض ما يأتي:

* تدوين العلوم الشرعية واللسانية والعقلية ولم يدون في صدر الإسلام من ذلك إلا نذر يسير، وكذا الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية.

* تأدية مقاصد الصناعات المختلفة، وخاصة بعد دخول العرب في غمار الصناعات وبعد تغرب الأعاجم.

* تأدية المقاصد التي استدعاها الانغماس في الترف بلذائد الحضارة التي جرت فيها الأمم عصر الدولة العباسية إلى أمد بعيد، أو اقتضاها نظام الملك والدفاع عنه. كالإمعان في وصف الأشياء النفسية مما لم يعرف للعرب في صدر الإسلام أو عرف وكان قليلاً ممقوتاً صاحبه، وكوصف البحر والأساطيل الحربية والمعارك البحرية. وامتناز بأكثر من ذلك المغرب والأندلس كما امتازت الأندلس بالإجادة في وصف مناظر الطبيعة ومحاسن الوجود لملائمة بيئتها لذلك، وكادت تلحق بها في الوصف صقلية وأفريقية إبان ازدهائهما.

* تأدية مقاصد أنواع الخلاعة والسخرية مما قل نظيره في صدر الإسلام.

* المحاضرة والمناظرة والبحث والجدل وتدريس العلوم.

2.2 المعاني والأفكار:

إن ما حدث في مشارق الممالك الإسلامية ومغاربها أثناء العصر العباسي من الانقلابات السياسية والاجتماعية كان له نتيجة ظاهرة في الحركة الفكرية للمتكلمين بالعربية ظهر ذلك في عباراتهم وأشعارهم بصور مختلفة. فمنها:

* ازدياد شيوخ المعاني الدقيقة، والتصورات الجميلة، والأخيلة البديعة.

* التعويل على القياس والتعليل في الأحكام الفردية: بالإكثار من الحجج والبراهين العقلية وانتحاء مذاهب الفلسفة في الشعر والكتابة والتدريس ولا سيما بعد عصر الترجمة وأكثر ما كان ذلك بالمشرق وقلما عني به أهل المغرب.

* التهويل والغلو في التفضيم المقتبس في المشرق من اللغة الفارسية والساري بعضه بالعدوى إلى أهل المغرب والأندلس.

3.2 الألفاظ والأساليب:

غلب على عبارة اللغة العربية في هذه المدة أمران عظيمان: السهولة والمحسنات البديعية. ويشمل ذلك على ما يأتي:

* انتقاء الألفاظ الرشيقة السهلة وقلة الحاجة إلى الارتجال.

* ازدياد الميل إلى استعمال ألفاظ القرآن والاقتباس منه والاستشهاد به.

* الإكثار من ألفاظ المجاز والتشبيه والتمثيل والكناية والمحسنات اللفظية.

* التوسع في إدخال ألقاب التعظيم على أسماء الخلفاء والأمراء والعظماء.

* تفاقم الخطب في استعمال الكلمات الأعجمية في كثير من الأشياء.

* وضع اصطلاحات العلوم والفنون والصناعات ودار الحكومة وغيرها.

* التأنيق في صوغ العبارات وتوثيق الربط بينهما والميل إلى استعمال السجع.

* التطرف إلى غاية حدي الأطناب والإيجاز ولكل منهما مقام.

* حدوث لغة تأليفية لتعليم العلوم تقاس بمعيار المنطق لا بمعيار البلاغة.

4.2 النثر المحادثة أو (لغة التخاطب):

إن لغة التخاطب بين الخاصة من العرب في أواخر العصر الماضي كانت العربية الفصيحة الخالية من اللحن إلا من آحاد عيروا به، وأن لغة العامة والسوقة من العرب المختلطين بالعجم هي العربية المشوبة بشيء من اللحن، ولغة المتعربين من العجم تقل عن هذه في الفصاحة، وتزيد عليها في اللحن بمراتب مختلفة.

فلما تم امتزاج العرب بالعجم عصر الدولة العباسية، تكونت بين العامة في البلاد التي تكثر فيها جمهرة العرب لغات تخاطب علمية، إلا بين أهل جزيرة العرب، فلم يزل تخاطبهم باللسان العربي الفصيح إلى أواسط القرن الرابع. وبقيت لغات التخاطب في البلاد التي تقل فيها جاليتهم هي اللغات الوطنية الأعجمية ممزوجة ببعض الألفاظ العربية التي أدخلها عليها الإسلام.

وخاف الخلفاء والخاصة من هول تغلب العامية على الفصيحة فيستغل على المسلمين فهم الكتاب والسنة وهما كل الدين، فحرضوا العلماء على تدوين اللغة والإكثار من العناية بضبط النحو وفنون البلاغة، ولكن ذلك كله لم يوقف تيار العامية الزاخر، واستمر في طغيانه إلى أن غلب في النصف الأخير من عصر هذه الدولة على جميع لغات التخاطب، حتى لغة الخلفاء وعلماء العربية أنفسهم وأصبح لكل بلاد عربية لغة تخاطب عامية خاصة بها، ولكن لم تصبح العامية لغة علم وأدب، كما وأن ذلك لم يكن طويل الأمد.¹

¹ انظر، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ج2، ص.ص

3. سمات المجتمع العباسي:

اتّسم العصر العباسي بثروة فكرية عارمة تمثّلت بالدراسات والعلوم والآداب والآثار الجمّة، التي ظهرت في مرحلة ذهبية، كان لها كبير الأثر في تنمية الأدب وإغناء التراث العربي وتطويره. والملاحظ أن العصر العباسي كان غنيًا بالأدباء والشعراء على اختلاف مراحلهم، وهذا ناشئ عن الحياة الثقافية التي ازدهرت سواء في كثرة المدارس والعلوم والحلقات التدريسية، أو في تعدّد الأساتذة وكثرة المؤلفين وتضاعف النتاج وانتشار الثقافة.¹

في البيئة العباسية وما تعنيه من تجدد في الحياة، وانفتاح على الدنيا، فالناس تتسابق فيما يجني العيش وأسباب النعيم، وتتنافس في مجالات العالم والمعرفة، ثم تتوزع جماعات، تمضي كل واحدة منها إلى أغراضها وأهدافها، فتتعدد المفاهيم وتختلف الاتجاهات وينشط المجتمع العربي العباسي في صراع خالق مجدد، وينطلق العقل العربي إلى العطاء، ليعمل الإنسان العربي في بناء عصره وصنع بيئته، ويرجع في ذلك إلى حضارات متعددة يغني بها فكره ومطامحه. وتتسع من جراء ذلك حراك العمران، وتشمخ عمارة الفكر الغربي. ويخصبه عطاء الحضارة العباسية.

قد برز في هذا المجال إقليم العراق، فقد غدا مع العباسيين ملتقى متنوع الحضارات أو الجماعات، ليكون مكان تمازج عظيم، بل أرضاً معطاء في الحوار والوجود الجديد، وإذا هو منطلق اجتماعي متعدد المراقي والأبعاد، ينهل من الصحراء حيناً، ومن حواضر عالمية شرقية وغربية حيناً آخر.

¹ الجاحظ (عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي أبو عثمان)، البخلاء، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط2،

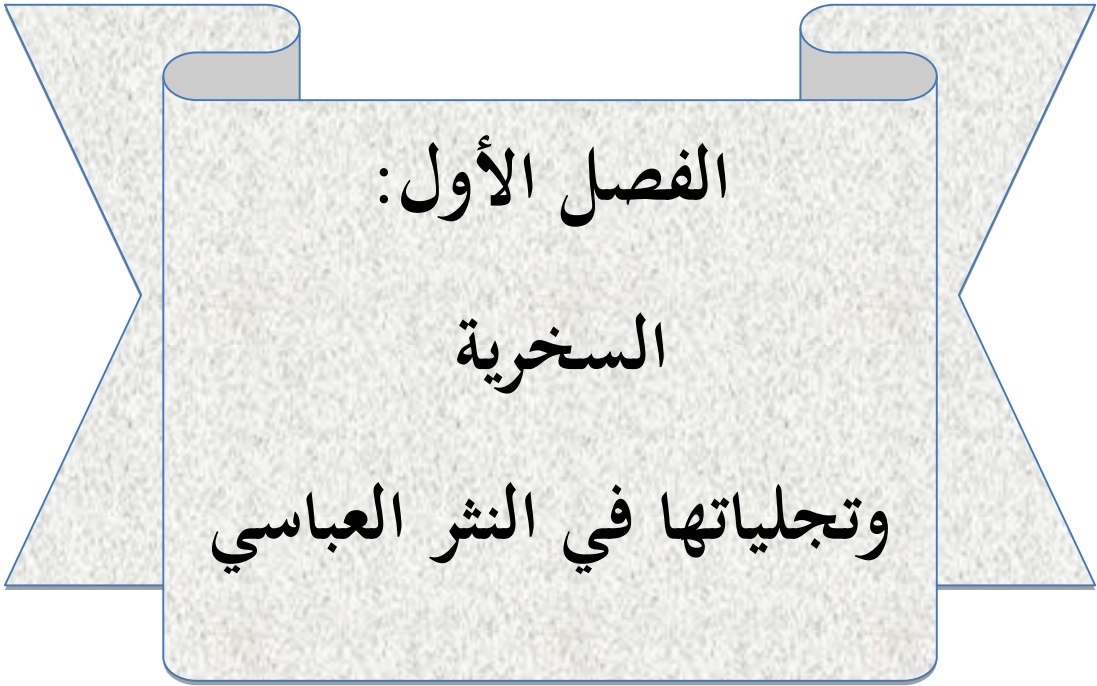
وإذا هو يونان العباسيين بل الشرق إن لم يكن العالم بأكمله وازدهرت في العراق مدينة البصرة، مسقط رأس عمرو بن بحر الجاحظ، لتكون أثينا العرب، وإذا هي تشرع أبوابها للشرق والغرب، فيأتي إليها الناس من كل حذب وصوب لينالوا منها ويعطوها.

وتتباين فيها أساليب العيش والفكر والحياة، وتنشط حركة النقل وتعدد مذاهب الدين، فتولد فيها حركة الاعتزال. وتنتشر المدارس والمساجد ويلين لها العيش، وتخصب الحياة وإذا هي مجالات للعمل والعلم، وازدهار الحضارة.¹

"وإذا عرف العصر العباسي بالعصر الذهبي، فإن ذهبيته تلك رصّعت بولادة رجل كبير، استطاع أن يشكّل قفزة واسعة في ميادين الأدب واللغة والاجتماع والتأليف والكتابة، ألا وهو الجاحظ أحد أعلام الكتابة في العصر العباسي الثاني."²

¹ فاروق سعد، مع بخلاء الجاحظ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط6، 1413هـ/1992م، ص1.

² الجاحظ، البخلاء، ص5.



الفصل الأول:

السخرية

وتجلياتها في النشر العباسي

1. مفهوم السخرية والفكاهة:

1.1 لغة:

ورد في كتاب العين ما نصه: "سخر: سَخَرَ منه وبه، أي: استهزأ. والسُّخْرِيَّةُ: مصدر في المعنيين جميعاً، وهو السُّخْرِيُّ أيضاً ويكون نعتاً كقولك: هم لك سِخْرِيٌّ وسُخْرِيَّةٌ، مذكر ومؤنث [من ذكر قال: سِخْرِيٌّ، ومن أنث قال: سُخْرِيَّةٌ]. والسُّخْرَةُ: الضُّحْكَةُ، وأما السُّخْرَةُ فما تَسَخَّرَتْ من خادم ودابة بلا أجر ولا ثمن. تقول: هم لك سُخْرَةٌ وسُخْرِيًّا. قال الله جل وعز: [فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي]، أي: سُخْرِيَّةٌ، من تَسَخَّرَ الخول وما سواه، وسخريا في الاستهزاء.¹

أما في الصحاح: "[سخر] سَخَرْتُ منه أَسَخَرُ سَخَرًا بالتحريك، وَمَسَخَرًا وسُخْرًا بالضم. قال أعشى باهلة:

إِنِّي أَتَنَّتِي لِسَانٌ لَا أُسَرُّ بِهَا مِنْ عَلَوٍ لَا عَجَبٌ مِنْهُ وَلَا سَخَرُ

والتأنيث للكلمة، وكان قد أتاه خبر مقتل أخيه المنتشر. وحكى أبو زيد: سَخَرْتُ به، وهو أردأ اللغتين. وقال الأخفش: سخرت منه وسخرت به، وضحكت منه وضحكت به، وهزئت منه وهزئت به.²

وأما في لسان العرب: "سخر: سَخَرَ مِنْهُ وَبِهِ سَخَرًا وسَخَرًا وَمَسَخَرًا وسُخْرًا، بِالضَّمِّ، وسُخْرَةً وسِخْرِيًّا وسُخْرِيًّا وسُخْرِيَّةً: هَزَى بِهِ؛ وَيُرْوَى بَيْتُ أَعْشَى بِأَهْلَةٍ عَلَى وَجْهَيْنِ:

إِنِّي أَتَنَّتِي لِسَانٌ، لَا أُسَرُّ بِهَا مِنْ عَلَوٍ، لَا عَجَبٌ مِنْهَا وَلَا سُخْرُ

وَيُرْوَى: وَلَا سَخَرُ، قَالَ ذَلِكَ لَمَّا بَلَغَهُ خَبَرُ مَقْتَلِ أَخِيهِ الْمُنتَشِرِ، وَالتَّأْنِيثُ لِلْكَلِمَةِ. قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: وَقَدْ يَكُونُ نَعْتًا كَقَوْلِهِمْ: هُمْ لَكَ سِخْرِيٌّ [سِخْرِيٌّ] وسُخْرِيَّةٌ [سُخْرِيَّةٌ]، مَنْ ذَكَرَ قَالَ سِخْرِيًّا

¹ الفراهيدي (أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري)، كتاب العين، ج4، تح: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د. ط، د. ت، ص 196.

² الفارابي (أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج2، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1407هـ/1987م، ص 679.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

[سُخْرِيًّا]، وَمَنْ أَنْتَ قَالَ سُخْرِيَّةً [سُخْرِيَّةً]. الْفَرَاءُ: يُقَالُ سَخِرْتُ مِنْهُ، وَلَا يُقَالُ سَخِرْتُ بِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: [لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ]. وَسَخِرْتُ مِنْ فُلَانٍ هِيَ اللَّغَةُ الْفَصِيحَةُ. وَقَالَ تَعَالَى: [فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ]، وَقَالَ: [إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ]؛ وَقَالَ الرَّاعِي:

تَغَيَّرَ قَوْمِي وَلَا أَسْخَرُ وَمَا حَمٌّ مِنْ قَدَرٍ يُقَدَّرُ

قَوْلُهُ أَسْخَرُ أَي لَا أَسْخَرُ مِنْهُمْ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ سَخِرْتُ مِنْ رَاضِعٍ لَخَشِيتُ أَنْ يَجُوزَ بِي فِعْلُهُ. الْجَوْهَرِيُّ: حَكَى أَبُو زَيْدٍ سَخِرْتُ بِهِ، وَهُوَ أَرْدَأُ اللَّغَتَيْنِ. وَقَالَ الْأَخْفَشُ: سَخِرْتُ مِنْهُ وَسَخِرْتُ بِهِ، وَضَحِكْتُ مِنْهُ وَضَحِكْتُ بِهِ، وَهَزَيْتُ مِنْهُ وَهَزَيْتُ بِهِ؛ كُلُّ يُقَالُ، وَالِاسْمُ السُّخْرِيَّةُ وَالسُّخْرِيُّ وَالسُّخْرِيُّ، وَقُرِئَ بِهِمَا قَوْلُهُ تَعَالَى: [لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا]، [سُخْرِيًّا]. وَفِي الْحَدِيثِ: أَتَسْخَرُ مِنِّي وَأَنَا الْمَلِكُ؟ أَي أَتَسْتَهْزِئُ بِي، وَإِطْلَاقُ ظَاهِرِهِ عَلَى اللَّهِ لَا يَجُوزُ، وَإِنَّمَا هُوَ مَجَازٌ بِمَعْنَى: أَتَضَعُنِي فِيمَا لَا أَرَاهُ مِنْ حَقِّي؟ فَكَأَنَهَا صُورَةُ السُّخْرِيَّةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: [وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ]؛ قَالَ ابْنُ الرُّمَّانِيِّ: مَعْنَاهُ يَدْعُو بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَى أَنْ يَسْخَرَ، كَيَسْخَرُونَ، كَعَلَا قِرْنَهُ وَاسْتَعْلَاهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: [يَسْتَسْخِرُونَ]؛ أَي يَسْخَرُونَ وَيَسْتَهْزِئُونَ، كَمَا تَقُولُ: عَجِبَ وَتَعَجَّبَ وَاسْتَعْجَبَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ. وَالسُّخْرَةُ: الضُّحْكَةُ. وَرَجُلٌ سُخْرَةٌ: يَسْخَرُ بِالنَّاسِ، وَفِي التَّهْذِيبِ: يَسْخَرُ مِنَ النَّاسِ. وَسُخْرَةٌ: يُسْخَرُ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ سُخْرِيٌّ وَسُخْرِيَّةٌ؛ مَنْ ذَكَرَهُ كَسَرَ السَّيْنِ، وَمَنْ أَنَّثَهُ ضَمَّهَا.¹

ويقول صاحب القاموس المحيط: "سَخِرَ مِنْهُ وَ. بِهِ، كَفَرَحَ، سَخَرًا وَسَخَرًا وَسُخْرَةً وَمَسْخَرًا وَسُخْرًا وَسُخْرًا: هَزَى، كَاسْتَسْخَرَ. وَالِاسْمُ: السُّخْرِيَّةُ وَالسُّخْرِيُّ، وَيَكْسُرُ. وَسَخَرَهُ، كَمَنْعَهُ، سُخْرِيًّا، بِالْكَسْرِ وَيَضُمُّ: كَلَّفَهُ مَا لَا يُرِيدُ، وَقَهَرَهُ. وَهُوَ سُخْرَةٌ لِي وَسُخْرِيٌّ وَسُخْرِيٌّ. وَرَجُلٌ سُخْرَةٌ، كَهُمَزَةٍ: يَسْخَرُ مِنَ النَّاسِ. وَكِبْسَرَةٍ: مَنْ يُسْخَرُ مِنْهُ، وَمَنْ يَتَسَخَّرُ كُلٌّ مِنْ قَهْرِهِ."²

¹ ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعي الإفريقي)، لسان العرب، ج4، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، ص352.

² الفيروز آبادي (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب)، القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط8، 1426هـ/2005م، ص405.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

أما عن الفكاهة فقد أورد الفراهيدي ما نصه: "فكه: ... وفكَّهْتُ القومَ بالفكاهة تفكيهاً، وفكَّهْتُهُمْ مُفَاكَهَةً بِمُلْحِ الْكَلَامِ وَالْمُزَاحِ، والاسم: الْفَكِيهَةُ وَالْفُكَاهَةُ. وتَفَكَّهْنَا من كذا، أي: تَعَجَّبْنَا، ومنه قوله تعالى: [فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ] (سورة الواقعة، الآية: 65)، أي: تَعَجَّبُونَ. وقوله عز وجل: فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُم (سورة الطور، الآية: 18) أي: ناعمين مُعْجَبِينَ بما هم فيه، ومن قرأ (فَكِهِينَ)، فمعناه: فرحين، ويُختار ما كان لأهل الجنة: فاكهينَ، وما كان لأهل النار: فَكِهينَ، أي: أَشْرينَ بَطْرِينَ. والفُكَاهَةُ: المَزَاحُ، والفَاكَةُ: المَزَاحُ. ويقال في قوله تعالى: (فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ): تَتَدَمَّونَ. وأفكَّهتِ النَّاقَةُ إذا رَأَيْتَ فِي لَبَنِهَا خَثُورَةً قَبْلَ أَنْ تَضَعَ فَهِيَ: مُفَكَّةٌ. والفكه: الطيب النفس.¹

أما الفارابي فقد قال: "فكه: ... والفكاهة بالضم: المَزَاحُ. والفكاهة بالفتح: مصدر فَكَّهَ الرجلُ بالكسر، فهو فَكَّهٌ، إذا كان طيِّبَ النفسِ مَزَاحاً. والفَكَّةُ أيضاً: الأَشْرُ البَطْرُ. وقرئ: (وَنِعْمَةٌ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ) ، أي أَشْرينَ. و(فاكهين) أي ناعمين. والمفاكهة: الممازحة.²

وأورد ابن منظور: "فكه: ... أَبُو مُعَاذٍ النَّحْوِيُّ: الْفَاكَةُ الَّذِي كَثُرَتْ فَاكِهَتُهُ، وَالْفَكَّةُ: الَّذِي يَنَالُ مِنْ أَعْرَاضِ النَّاسِ، وَالْفَاكِهَانِيُّ: الَّذِي يَبِيعُ الْفَاكَةَ. قَالَ سَبْيَوْنِي: وَلَا يُقَالُ لِبَائِعِ الْفَاكَةِ فَكَّاهٌ، كَمَا قَالُوا لَبَّانٍ وَتَبَّالٍ، لِأَنَّ هَذَا الضَّرْبَ إِنَّمَا هُوَ سَمَاعِي لَا اطِّرَادِي. وَفَكَّهَ الْقَوْمَ بِالْفَاكَةِ: أَتَاهُمْ بِهَا. وَالْفَاكِيَةُ أَيْضاً: الْحَلَوَاءُ عَلَى التَّشْبِيهِ. وَفَكَّهَهُمْ بِمُلْحِ الْكَلَامِ: أَطْرَفَهُمْ، وَالاسْمُ الْفَكِيهَةُ وَالْفُكَاهَةُ، بِالضَّمِّ، وَالْمَصْدَرُ الْمُتَوَهَّمُ فِيهِ الْفَعْلُ الْفَاكَةُ. الْجَوْهَرِيُّ: الْفَاكَةُ، بِالْفَتْحِ، مَصْدَرُ فَكَّهَ الرَّجُلُ، بِالْكَسْرِ، فَهُوَ فَكَّهٌ إِذَا كَانَ طَيِّبَ النَّفْسِ مَزَاحاً، وَالْفَاكَةُ الْمَزَاحُ. وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ: كَانَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ أَفَكِهِ النَّاسِ مَعَ صَبِيٍّ الْفَاكَةُ: الْمَزَاحُ. وَفِي حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ: أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَفَكِهِ النَّاسِ إِذَا خَلَا مَعَ أَهْلِهِ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: أَرْبَعُ لَيْسَ غَيْبَتُهُنَّ بَغِيْبَةٌ، مِنْهُمُ الْمُتَفَكِّهُونَ بِالْأَمَّهَاتِ؛ هُمُ الَّذِينَ يَشْتُمُونَهُنَّ مُمَازِحِينَ. وَالْفُكَاهَةُ، بِالضَّمِّ: الْمَزَاحُ، وَقِيلَ: الْفَاكَةُ ذُو الْفَاكَةِ كَالْتَّامِرِ وَاللَّابِنِ. وَالتَّفَاكَةُ: التَّمَازُحُ. وَفَاكَّهْتُ الْقَوْمَ مُفَاكَهَةً بِمُلْحِ الْكَلَامِ وَالْمَزَاحِ،

¹ انظر، الفراهيدي، كتاب العين، ج3، ص381.

² انظر، الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج6، ص2243.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

والمُفَاكِهَةُ: المُمَازِحَةُ. وَفِي الْمَثَلِ: لَا تُفَاكِهْ أُمَّه وَلَا تَبُلْ عَلَى أَكَمَةٍ. وَالْفَكِهَةُ: الطَّيِّبُ النَّفْسِ، وَقَدْ فَكِهَ فَكَهَا. أَبُو زَيْدٍ: رَجُلٌ فَكِهٌ وَفَاكِهٌ وَفَيْكِهَانٌ، وَهُوَ الطَّيِّبُ النَّفْسِ الْمَزَّاحُ؛ وَأَنْشَدَ:

إِذَا فَيْكِهَانٌ دُو مَلَاءٍ وَلِمَّةٍ قَلِيلُ الْأَدَى، فِيمَا يَرَى النَّاسُ، مُسْلِمٌ

وفاكِهْتُ: مازَحْتُ. وَيُقَالُ لِلْمَرْأَةِ: فَكِيهَةٌ، وَلِلنِّسَاءِ فَكِهَاتٌ. وَتَفَكَّهْتُ بِالشَّيْءِ: تَمَتَّعْتُ بِهِ. وَيُقَالُ: تَرَكْتُ الْقَوْمَ يَتَفَكَّهُونَ بِفُلَانٍ أَيْ يَغْتَابُونَهُ وَيَتَنَاولُونَ مِنْهُ. وَالْفَكِهَةُ: الَّذِي يُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ وَيُضْحِكُهُمْ ... أَبُو عُبَيْدٍ: تَقُولُ الْعَرَبُ لِلرَّجُلِ إِذَا كَانَ يَتَفَكَّهُ بِالطَّعَامِ أَوْ بِالْفَاكِهَةِ أَوْ بِأَعْرَاضِ النَّاسِ إِنَّ فُلَانًا لَفَكِهٌ بِكَذَا وَكَذَا.¹

وأما الفيروز آبادي فقال: "وَفَكَّهَهُمْ بِمُلَحِّ الْكَلَامِ تَفَكِّيهاً: أَطْرَفَهُمْ بِهَا، وَالاسْمُ: الْفَكِيهَةُ وَالْفُكَاهَةُ، بِالضَّمِّ. وَفَكِهَ، كَفَرَحَ، فَكَهَا وَفَكَاهَةً، فَهُوَ فَكِهٌ وَفَاكِهٌ: طَيِّبُ النَّفْسِ ضَحُوكٌ، أَوْ يُحَدِّثُ صَحْبَهُ فَيُضْحِكُهُمْ، وَ مِنْهُ: تَعَجَّبَ، كَتَفَكَّهَ. وَالتَّفَاكُهُ: التَّمَازُحُ. وَفَاكِهُهُ: مَازَحَهُ."²

2.1 اصطلاحاً:

السخرية قديمة قدم الإنسان لأنها قد تكون ترويحاً عن النفس أو تسرية عن القلب، أو استنكاراً لما يقع، أو هزواً وتندراً بالخصم كما جاء في قصة "نوح" (عليه السلام)، حين أمر بصنع السفينة ليجمع فيها كل زوجين اثنين، وأهله، وقرابته المؤمنين ومن اتبعهم وآمن به...قومه، وضحكوا وقالوا: يا نوح، قد كنت بالأمس نبياً وأصبحت اليوم نجاراً فكان جواب "نوح" حاملاً الوعيد والتهديد عاقبة لتكذيبهم واستهزائهم، قال تعالى: ﴿يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38)﴾ [هود: 38]

[38]

إن السخرية إذا قصد بها الاحتقار والاستصغار لغير سبب ظاهر، فهي منهي عنها بنص القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ [الحجرات: 11]، لما فيه من الاستهانة

¹ انظر، ابن منظور، لسان العرب، ج13، ص523 وما بعدها.

² انظر، الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص1250.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

بأقدار الناس وكراماتهم، ولأنه يجرح شعور المستهان به ويؤذيه "فإذا كان المسخور منه بليد الشعور لا يتأثر بما يلحقه من إهانات، فإن النهي في هذه الحالة لا يتناوله، بل يكون تحقيقه ضرباً من المزاح الذي أحله الله".

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانا بها كانت على الناس أهونا
والسخریات التي ملئت بها كتب الأدب العربي كانت من هذا القبيل، لأنها تناولت الغفلة والتغافل، والتناقض والتلاعب بالألفاظ والتهكم بالعيوب الخلقية، والنفسية، والجسدية، والدعابة، والحدلق، والرد بالمثل، والتهكم الاجتماعي والسياسي، والتخلص الفج، والقلب والعكس، وضعف العقل، وغير ذلك.

والذي ساق المتدربين والساخرين إلى هذا، خبرتهم بأن الإنسان يطرب بطبيعته للفكاهة، ويمدح الهشاشة ويستلذ البشاشة، قال "أرسطو": "إن (الملهاة) تظهر النفس كما تطهرها (المأساة)، لأن النفس المطبوعة على الرحمة أو على حسن الذوق، تجد في المأساة والملهاة متصرفاً لما تتطوي عليه من العطف والشوق إلى الكمال، واجتناب التشويه".

وقال أيضاً: "والهزل أو المزاح تمثيل الصغار من غير غضب يقترب بهذا التمثيل، ومن غير إيلا م للمحاكى ... إن المستهزئ تتسم سحنه بالفرح والانبساط، لا بالانقباض والغم والأذى، فالمضحك نوع ذميم أو مشوه، لا يبلغ حدا الإيلا م لنا أو الإيذاء"¹.

لقد تعددت مفاهيم السخرية عند الكثير من الباحثين، منها ما ورد عن محمد ناصر في أنها: "طريقة فنية أدبية ذكية لبقة في الإبانة عن آراء ومواقف ذات رؤية خاصة، وبصيغة فنية متميزة، وهي أسلوب نقدي هازئ، هادف في التعبير عن أفعال معينة كعدم الرضا بتناقضات الحياة وتصرفات الناس وكشف الحسرة والمرارة بطريقة غير مباشرة، بعيداً عن العاطفة

¹ السيد عبد الحليم محمد حسين، السخرية في أدب الجاحظ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام، الجماهيرية الليبية، ط1، 1397هـ/1988م، ص 64 وما بعدها.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

الجامعة، والانفعال الحاد قصد الإصلاح والتقويم والتغيير نحو الأحسن، وطلبا للتنفيس عن الآلام المكبوتة.¹

يقول شوقي ضيف: "السخرية أرقى أنواع الفكاهة لما تحتاج من ذكاء، وخفاء، ومكر، وهي لذلك أداة دقيقة في أيدي الفلاسفة الذين يهزؤون بالعقائد والخرافات، ويستخدمها الساسة للنكاية بخصومهم، وهي حينئذ تكون لذعا خالصا، وقد تستخدم في رقة وحينئذ تكون تهكما إذ يلمس صاحبها لمسا رقيقا...".²

وقد يستعين الساخر باللذع والتهكم "وعلى ذلك فاللذع والتهكم لوان من ألوان السخرية...".³

نستشف من خلال هذا أن السخرية وجه آخر للفكاهة، ومجمعا للذع والتهكم، ومنه يمكن اعتبارها طريقة تعبيرية يراد منها النيل من الآخرين على سبيل الانتقاص والاستهزاء والتهكم.

وقد تعددت مبتغيات السخرية وأهدافها المرجوة من ورائها، وذلك باعتبارها رسالة موجهة إلى الغير على سبيل ألفاظ مشفرة تحتوي على معان تحمل بين طياتها لذعا وردعا، إنها: "وسيلة للنيل من الآخرين لتحقيق أهداف متعددة منها: الإساءة والتشفي، وإظهار التفوق، والتخلص من ظروف قاهرة، والاستخفاف، والاستهانة، وعدم الاكتراث، كما أنها أسلوب لدفع الأذى وتفريغ الطاقة".⁴

السخرية سلاح يستخدم للنيل من الخصم ببرودة أعصاب، من غير إبداء أي تشنج، كدليل على ضبط النفس، بمعنى أنها البديل عن الهجوم المباشر والسباب، "لهذا قد يغضب الأديب ويثور، ويؤثر أحيانا أن يخفي في نفسه الغضب والثورة، ويحرص على ضبط أعصابه

¹ بوحام محمد ناصر، السخرية في الأدب الجزائري الحديث، مطبعة العربية، د.ط، 2004م، ص32

² شوقي ضيف، الفكاهة في مصر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ط، 1969م، ص35.

³ المرجع نفسه، ص35.

⁴ فاعور ياسين، السخرية في أدب إميل حبيبي، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة-تونس، د.ط، د.ت، ص14.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

متكلفا الضحكة أو البسمة، لينال من خصمه بطريقة يعدل فيها عن الهجوم والسباب إلى لون آخر وهو السخرية.¹

ومن الأدباء والباحثين المحدثين الذين حاولوا تعريف السخرية المازني الذي يرى أن السخرية عبارة عما يثيره المضحك أو غير اللائق من الشعور بالتسلي أو التقرز، على أن تكون الفكاهة عنصرا بارزا والكلام مفرغا في قالب أدبي².

يقول عبد الحليم حفني: "السخرية أسلوب أو سلاح عدائي، مهما كانت دوافعها، ومهما كانت مقامها، ومهما صغرت درجاتها أو كبرت، ويتميز عن غيره من أساليب العداء بأنه مصوغ بروح الفكاهة وأسلوبها".³

وليست السخرية عدائية دائما، بل قد تكون توجيهية أو تنفيرية من سلوك أو عادة سيئة، أما أن تكون عدائية مهما كان مقامها أو دوافعها فالأمر لا يستقيم هكذا على إطلاقه إلا إن كنا نقصد أنها كذلك من وجهة نظر المسخور منه، ويعرفها نعمان طه بأنها: "النقد الضاحك أو التجريح الهازئ".⁴

أما قحطان التميمي فيقول: "السخرية في الشعر طريقة تعبيرية متطورة، توصل بها الشعراء لنقد الأوضاع السياسية والاجتماعية والسير الفردية، والنبل منها بأسلوب يترفع عن الشتيمة والسباب المحض، ويتنزه عن القذف والإيغال في الفحش ورفث القول"⁵

¹ المرجع نفسه، ص 31.

² إبراهيم عبد القادر المازني، حصاد الهشيم، مطابع دار الشعب، د.ط، د.ت، ص 302.

³ عبد الحليم حفني، أسلوب السخرية في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ط، 1978م، ص 15.

⁴ نعمان محمد أمين طه، السخرية في الأدب العربي، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر، مصر، ط 1، 1398هـ/1978م، ص 14.

⁵ قحطان رشيد التميمي، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث هجري، دار المسيرة، بيروت، د.ط، د.ت، ص 356.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

ويعرفها سليمان الشبابة بأنها: "الاستهزاء من الشخص أو الموقف بأسلوب يثير الضحك منه، بقصد إهانته و احتقاره، لتحطيم معنوياته الشخصية، والابتعاد عن مواقفه الشائنة".¹

وهذه الطريقة الذكية التي تسخر العقل وتعتمد برود الأعصاب هي طريقة السخرية، "السخرية فن لا يتقنه ولا يجيده إلا الأذكياء البارعون في التعبير عن الكلمة بحذق ولباقة وذكاء، بينما الهجاء الخالص لا يعوزه التركيز على الكلمات أو اختيار المعاني الناعمة الجارحة في آن واحد كما هو الحال في السخرية"²

وعلماء النفس يرون أن هناك صلة وثيقة بين الذكاء والسخر ويقولون أن الارتباط واضح بينهما، فكلما ارتفعت نسبة النجاح كان المجال أرحب لوجود الحس الفكاهي أو الساخر،³

وقد أدرك أرسطو منذ القدم هذه العلاقة فعالجها في خطابه.⁴

2. علاقة السخرية بالهجاء والتهكم والكوميديا:

1.2 الهجاء:

يعرفه العدوانى بقوله: "وهو أن يقصد المتكلم إلى هجاء إنسان فيأتي بألفاظ موجهة ظاهرها المدح وباطنها القدح، فيوهم أنه يمدحه وهو يهجو".⁵

¹ سليمان بن محمد الشبابة، الرسوم الساخرة في الصحافة-دراسة تحليلية، شركة العبيكان للطباعة والنشر، الرياض، د.ط، د.ت، ص10.

² انظر، عبد الغني العطري، أدبنا الضاحك، ص131.

³ انظر، عبد الحليم حفني، أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص15.

⁴ كامل المهندس مجدي وهبة، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م، ص60.

⁵ ابن أبي الإصبع العدوانى (عبد العظيم بن الواحد بن ظافر البغدادي ثم المصري)، تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، د.ط، د.ت، ص550.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

والسخرية نوع من الهجاء ولكنها تختلف عنه، فالهجاء صادر عن نفس غاضبة تهدف إلى التجريح والتشهير والانتقاص والمبالغة في التعدي، وليست السخرية كذلك في أغلب الأحيان.¹

وقد اصطلح الناس منذ القدم على أن الهجاء فن الشتم والسباب²، يقول قدامة: "الهجاء ضد المديح"³، ويذكر في موضع آخر عيوبه فيقول: "كما أن معرفة رداءة المدح قد كان سهلها معرفة جيدة، فكذا عيب الهجاء يسهل الطريق إلى العلم به ما تقدم في باب نعته، وجماع القول فيه: أنه متى سلب المهجو أموراً لا تجانس الفضائل النفسية كان ذلك عيباً في الهجاء، مثل أن ينسب إلى أنه قبيح الوجه، أو صغير الحجم، أو ضئيل الجسم، أو مقتر، أو معسر، أو من قوم ليسوا بأشراف، إذا كانت أفعاله في نفسه جميلة، وخصاله كريمة نبيلة، أو أن يكون أبواه مخطئين، إذا كان مصيباً، أو غويين، إذا وجد رشيداً سديداً، أو بقلة العدد، إذا كان كريماً، أو بعدم النظر، إذا كان راجحاً شهماً، فلست أرى ذلك هجاء جارياً على الحق."⁴

وقد أجمع أشهر الذين تعرضوا لتقسيم الشعر على أنه باب رئيس من أبواب الشعر، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفطرة الإنسانية فهو نابع من عاطفة الغضب، وهو عند ابن الأثير الحلبي: ذكر المساوى.⁵

ويعرفه محمد محمد حسين بأنه: "أدب غنائي يصور عاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء"⁶.

¹ انظر، شوقي محمد المعاملي، الاتجاه الساخر في أدب الشدياق، مكتبة النهضة المصرية، د.ط، 1987م، ص11.

² محمد محمد حسين، الهجاء والهجاءون في الجاهلية، دار النهضة العربية، بيروت، ط3، 1389هـ، ص5.

³ انظر، قدامة بن جعفر (بن قدامة بن زياد البغدادي أبو الفرج)، نقد الشعر، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، ط1، 1302هـ، ص30.

⁴ المرجع السابق، ص73.

⁵ ابن الأثير (نجم الدين أحمد بن إسماعيل الحلبي)، جوهر الكنز "تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة"، تح: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الاسكندرية، د.ط، د.ت، ص309.

⁶ محمد محمد حسين، الهجاء والهجاءون في الجاهلية، ص16.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

ويرى قحطان التميمي أن: "الهجاء تعداد للمعائب وكشف لبشاعة الرذائل والتناقض في الفرد والمجتمع بكل مظاهره السياسية والاجتماعية والأخلاقية"¹

الهجاء يعني تجلي الغضب العلني، "قالأديب قد يغضب ويثور وتشتد الخصومة بينه وبين من أثارها في نفسه، كما سبق وأن أشرنا، فيعمد أحيانا إلى السباب فينال من خصمه و يشفي قلبه من الحقد الذي يشعر به."²

يقصد بالهجاء الهجوم المباشر والسباب، في مقابل السخرية التي تعنى بضبط النفس والرد على الخصوم بأسلوب تهكمي.

إن التباين بين السخرية والهجاء، هو عنوان التباين بين الناس فيما يتعلق بإتقان فنون الرد، دون التغاضي عن الدوافع الذاتية، والتي نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر: "حرص الأديب على حياته حيناً، و منها رغبتة في إخفاء غضبه حيناً آخر، و منها علو كعبه في العلم والثقافة حيناً آخر، ولا غرو في هذا فالعلم يشحذ الذكاء، و الذكاء يسعف صاحبه عادة في هذه المواطن، فنرى الأديب المثقف ينال من خصمه في هذه الحالة بطريقة ملتوية لا بطريقة ساذجة."³

2.2 التهكم:

يقصد بالتهكم: "ذكر أشياء أو أباطيل لا يعتقد بها الشخص، وفي نفس الوقت يتظاهر بالاعتقاد بأنها صحيحة، أو يذكرها في معرض التعجب من وجودها، ومن ثم يستهزئ بها وهو من صور السخرية الشفافة التي ليس من السهل تعريفها، ولكنها تعرف بالذهن اللّماح."⁴

أما العدوانية فقدأوردما نصه: "يقال: تهكمت البئر إذا تهدمت، وتهكم عليه: اشتد غضبه. والمتهكم المتكبر وقال أبو زيد: تهكمت: تعتبت، وهكمت، عيرته تهكماً عبته، وعلى

¹ قحطان رشيد التميمي، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، ص12 .

² المرجع نفسه، ص30.

³ المرجع السابق، ص30.

⁴ نعمان محمد أمين طه، السخرية في الأدب العربي، ص44

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

هذا يكون التهكم إما لشدة الغضب قد أوعد بلفظ البشارة أو لشدة الكبر وتهاونه بالمخاطب قد فعل ذلك أو ذكر بفعله عند العقوبة على سبب المعيرة له، فهذا أصله.

وهو في الاستعمال عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار، والوعد في مكان الوعيد، والمدح في معرض الاستهزاء.¹

وقريب مما سبق قول المؤيد بالله: "وهو تفعل من قولهم تهكمت البئر، إذا تساقطت جوانبها، وهو عبارة عن شدة الغضب لأن الإنسان إذا اشتد غضبه فإنه يخرج عن حد الاستقامة وتتغير أحواله، وفي الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم: "اتقوا الغضب فإنه يوقد في فؤاد ابن آدم النار، ألا تروه إذا غضب كيف تحمر عيناه وتتنفخ أوداجه"، وهو في مصطلح علماء البيان عبارة عن إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال استهزاء بالمخاطب، ودخوله كثير في كلام الله تعالى: وكلام رسوله وعلى ألسنة الفصحاء، وله موقع عظيم في إفادة البلاغة والفصاحة.²

أما ابن حجة الحموي فيرى أن: "التهكم نوع عزيز في أنواع البديع، لعلو مناره، وصعوبة مسلكه، وكثرة التباسه بالهزاء في معرض المدح، وبالهزل الذي يراد به الجد، ويأتي الفرق بينهما بعد إيضاح حد.

والتهكم، في الأصل، التهم. يقال: تهكمت البئر، إذا تهدمت وتهكم عليه إذا اشتد غضبه، والمتهمك المحتقر. قال أبو زيد: تهكمت غضبت وتهكمت تحقرت، وعلى هذا يكون المتهمك لشدة الغضب قد أوعد بالبشارة، أو لشدة الكبر أو لتهاونه بالمخاطب قد فعل ذلك، فهذا أصله في الاستعمال.

وفي المصطلح هو عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار، والوعد في مكان الوعيد، والمدح في معرض الاستهزاء، فشاهد البشارة في موضع الإنذار قوله تعالى: {يَسِّرْ

¹ ابن أبي الإصبع العدواني، تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ص 568.

² المؤيد بالله (يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم الحسيني العلوي الطالبي)، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج3، المكتبة العنصرية، بيروت، ط1، 1423هـ، ص91.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} (النساء: 138). وشاهد المدح في معرض الاستهزاء بلفظ المدح، قوله تعالى: {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} (الدخان: 49). قال الزمخشري: إن في تأويل قوله تعالى له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله تهكمًا، فإن المعقبات هم الحرس من حول السلطان يحفظونه، على زعمه، من أمر الله على سبيل التهكم، فإنهم لا يحفظونه من أمره في الحقيقة إذا جاء، والله أعلم. ومنه قوله تعالى: {قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} (البقرة: 93). فقله: إيمانكم تهكم.¹

ومما سبق ذكره يتبين لنا العلاقة الوطيدة بين كل من الهجاء والسخرية والتهكم، وأنهم يخرجون من مشكاة واحدة، ويصبون في إناء واحد ألا وهو الانتقاص من الغير، وكشف العيوب والمستور، وهذا ما أوضحه فاعور ياسين في قوله: "إلا أنه بين الهجاء والسخرية والتهكم صلات شتى تجعل كل واحد منها قريب من الآخر حيث يمكن أن ينظر إليها كلها على أنها تتبع من نفس واحدة، هي النفس الحاقدة أو الراغبة في الانتقاص."²

والعلاقة بين السخر والهجاء كالعلاقة بين الجزء والكل، إذ السخرية لم تكن يوما غرضا شعريا مستقلا عن الهجاء إنما هي أسلوب في الأداء الهجائي تطور بتطور الهجاء لأنها أداة من أدواته و جزء منه، وليس من مبرر لجعلها غرضا مستقلا، فكما سلك الشعراء إلى هجاء المظاهر السياسية والاجتماعية والشخصية أسلوبا جادا فإنهم سلكوا إلى هجاء هذه المظاهر أسلوبا هازلا متفكها ساخرا³

والأديب حينما يسخر يتناول بعدما بين الأشياء والطبيعة، ويركض في حلبة جادا أو متفكها مداعبا، أي أنه قد يستوحي إرادته أو مشاعره أو يستملي عقله، فإن كانت الأولى فهو هاج منتقم، وأن كانت الثانية فهو ساخر يركب ما بدا له بالدعابة.⁴

¹ ابن حجة الحموي (تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري)، خزانة الأدب وغاية الأرب، تح: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دار البحار، بيروت، الطبعة الأخيرة، 2004م، ص215.

² فاعور ياسين، السخرية في أدب إميل حبيبي، ص31.

³ قحطان رشيد التميمي، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، ص357.

⁴ إبراهيم عبد القادر المازني، حصاد الهشيم، ص302.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

فالسخرية فن له خصائصه وطبيعته إلا أنه لا يخرج عن كونه هجاء، وهي عنصر من عناصر هذا الهجاء تحتاج إلى مواهب متعددة ومقدرة فائقة في اختيار الموضوع وصياغته وطريقة تقديمه وأسلوب المعالجة ، ومعرفتنا بأذواق المتلقين وأقدار المهجوين.¹

والسخرية مزيج بين شيئين، الهجاء والفكاهة، ومزج الهجاء بالفكاهة والهزل يكسبه البقاء والرسوخ في الأذهان، يقول القاضي الجرجاني: "فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قُرِبَت معانيه وسهِّل حفظه؛ وأسرع عُلوُّه بالقلب وأصوقه بالنفس؛ فأما القذف والإفحاش فسبَاب محض، وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم."²

والفكاهة شيء موهوب غير مكتسب، فهي مركبة في طباع الهجائيين الممتازين، اللذين لا تكاد أعينهم تقع على الشيء حتى تتدفق عليهم ألوان من الصور الفكاهية والأخيلة الساخرة التي تسعفهم بها البديهة دون إعمال كبير للعقل أو كد للمخيلة، فالصورة تلمع في ذهن الهجاء الساخر الفطن فتسغه بالنكتة الصائبة بمجرد وقوع عينه على موضوع هجائه أو تخليه.³

إن الفكاهة: "اصطلاح لا يأبى أن يعرف فحسب بل تتعالى عن التعريف"⁴، ومن أقرب التعريفات التي توضح هذا المعنى التعريف الذي صاغه أحد الباحثين بقوله "الفكاهة تجاوب بين ما هو مضحك، أو غير معقول، أو ما يتميز بصفة التناقض في القول والفعل والحركة، وبين القدرة العقلية على إدراك هذه العناصر وتقديرها والتعبير عنها"⁵، إذا فالفكاهة تفاعل بين المضحك والعقل.

¹ انظر، عباس بيومي عجلان، الهجاء الجاهلي صوره وأساليبه الفنية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ط، 1985م، ص282.

² القاضي الجرجاني (أبو الحسن علي بن عبد العزيز)، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، د.ط، د.ت، ص24.

³ انظر، محمد محمد حسين، الهجاء والهجاءون في العصر الجاهلي، 46.

⁴ انظر، نعمان محمد أمين طه، السخرية في الأدب العربي، ص15.

⁵ أنيس فريحة، الفكاهة عند العرب، 14.

3.2 الكوميديا:

أما الكوميديا "فهى فن عقلي يقوم على النشاط الإبداعي، وهى تصوير لمثالب الناس، وعيوبهم، ونقائصهم، ومظاهر ضعفهم فى إطار فنى ينطوي على انسجام معكوس وهى فلسفة الضحك التى تسمو بالهزلى من المستوى العامى المبتذل إلى مستوى جمال فنى إنسانى".¹ والكوميديا فن يصور العيوب الاجتماعية تصويرا ساخرا فمن الناحية الأخلاقية تمتدح الكوميديا المثل الأعلى و تعلي من شأنه فى حين تسخر من نقيضه.

"تتخصر مهمة الكوميديا فى تصوير بعض النماذج البشرية كالخلاء أو الأذعياء، أو أنصاف المتعلمين أو المتحذلقين أو المرضى الموهومين أو النساء المغرورات أو الفاتنات العالمات، إن هذه الشخصيات التى يتناولها الكوميديون فى العادة بالسخرية والتهكم إنما هى الشخصيات الانعزالية التى تحيا على هامش المجتمع أو الشخصيات المنحرفة التى تتأى بنفسها عن معايير الجماعة".²

يمكننا القول بأن السخرية تبنى على العقل والفتنة، وتقوم على الثقافة وسعة العلم، وتهدف إلى أغراض بعيدة تتصل بالمجتمع و ما فيه من مبادئ فاسدة وشخصيات بارزة أو طبقات منحرفة أو هيئات مسيطرة، وبالتالي هى مرآة تعكس الواقع بصورة ساخرة ومعبرة.

3. أسباب السخرية:

لقد تنوعت الأسباب والدوافع المؤدية إلى السخرية وتعددت، نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر:

- أن الساخر هو ذلك المتعالي بنفسه عن المجتمع الذى يضحك منه أو من أحد أفراده لأسباب ترجع إلى حقه على المجتمع، لما يشعر به من نقص خلقي أو حرمان، وينقد بما منحه الله من موهبة أو مقدرة على السخرية، ينقد الأفراد أو المجتمع، لإخفاء هذا النقص.

¹ المرجع نفسه، ص 18

² المرجع السابق، ص 16.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

- عداوة بينه وبين الشخص الذي ينقده لسبب من الأسباب التي تتجم عن الاحتكاك الدائم بين الناس، لغرض الانتقام.

- تعالي شخص ناقص لا يحسّ ما فيه من نقص، فيضطر الأديب الساخر إلى أن يرده إلى صوابه أو منطقته، فيحاول حينذاك البحث عن عيوبه ويضخمها ويكبرها، بهذا يجعل منها وبفنه أداة للضحك.

- وقد تتولد عن تعالي الشخص الساخر بنفسه، شعوره بالغرور، وإجلال مكانته، لهذا يلجأ إلى نقد المجتمع بإبراز ما فيه من نقائص ومفارقات¹، لذلك قال العقاد: "... فالعبث و الغرور بابان من أبواب السخرية بل هما جماع أبوابه كافة..."² ويمكن أن تكون نابعة عن:

- حساسية الناقد نفسه على انه ذو عين بصيرة نفاذة يحس نقائص المجتمع فيتناول قضاياها بروح مرحة هذا بالاعتماد على أساليب السخرية المختلفة، قاصدا من وراء ذلك الإصلاح في قالب الإضحاك ، كما قد تكون وسيلة منه (الناقد) للعلاج و التنفيس كما يشعر به.³

- استعداد الفنان المزاجي الذي يكون ذهنه مهيباً دائماً إلى السخرية بالناس مع انتفاء دافع شخصي معين يدفعه إلى ذلك، ويمكن أن يكون الشخص نفسه ميّالاً إلى الشرّ بطبعه حيث يميل إلى إغاضة الناس و التشفي منهم، لضعة أصله و محاولته الانتقام من الناس كرها و حقداً.

وهذا متأصل في الطفولة الإنسانية حينما نرى بعض الصبية يقذفون الحيوانات بالحجارة أو يتعدّون عليها من غير رحمة أو شفقة لغير سبب ظاهر، ونرى بعض الناس قد تأصل فيهم النيل إلى المشاكسة و جرى في طبعهم إلى حد مضايقة غيرهم و الشعور باللذة

¹ انظر، المرجع السابق، ص18.

² العقاد عباس محمود، مطالعات في الكتب والحياة، المكتبة التجارية، ط12، د.ت، ص17.

³ انظر، المرجع نفسه، ص17.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

حينما يرون غيرهم يتألمون، وأوضح مثال على ذلك الحطيئة (ت.679م) في الأدب العربي، وبرناردشو (1856/1950م) في الأدب الإنجليزي، فقد كان الحطيئة مغمور النسب محروم الميراث، لقي بين القبائل، ونشأ الثاني في بيئة اجتماعية منحلّة فكان أبوه مدمن خمر، لذلك كان كلما أصيب بكارثة أو محنة، رّقّه عن نفسه بالضحك و السخرية أما أمه فقد تركت زوجها وعاشت مع معلم موسيقى دون أن تلقي بالها على شؤونها الزوجية.¹

كانت هذه هي الأسباب المؤدية للسخرية، التي تعددت، منها ما يعود إلى الفنان (الأديب) في حد ذاته أو إلى الشخص المسخور منه.

أما عن الأسباب الأولى قد تعود إلى الساخر وإلى شعوره بالدونية أو إلى غروره لإجلال مكانته، لهذا يلجأ إلى المجتمع أو قد تكون عن حقد من الناقد الذي يستشف نقائص مجتمعه فيتناول قضاياها بقلب مرح مضحك ومن ثمة تصبح وسيلة للترويح عن النفس و عما يشعل ربه.

كما قد تعود إلى مزاجية من الفنان دون أن يكون هناك أي سبب يدفعه إلى ذلك أو إلى نفسه الميالة إلى الشر و إلى إغاية الناس و التشفي منه، وهذا له أسبابه بالطبع. أما عن الأسباب الثانية تعود إلى تكبر الشخص، فيضطر الأديب إلى البحث عن عيوبه ليبصره بها فيرده إلى صوابه.

أما الأسباب الثالثة تتمثل في طبيعة العلاقة القائمة بينه (الفنان) وبين الشخص الذي يسخر منه والتي قد تكون لغرض النيل منه و الانتقام كذلك.

4.أساليب السخرية وصورها:

إن الأديب الفنان يتخير ألفاظه و تراكيبه، ليعبر بها عن مكنون مشاعره، و عصارة فكره فيبني من كلّ ذلك أساليب ينتقيها ليلبغ غايته في أفعان المتلقي بما يريد لإيصاله إليه.

¹ نعمان محمد أمين طه، السخرية في الأدب العربي، ص18.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

هذا الانتقام و القصد في الكتابة يعبران تعبيراً صادقاً عن مواقف وأفكار تحمل عمقا معينا وكثافة متميزة، ودلالات خاصة، كما يبينان إبانة واضحة عن شخصية الكاتب المتبني لتلك المواقف المتميزة عن غيره في اختيار المفردات وصياغة العبارات والتشبيهات البلاغية.¹

يعدّ الأسلوب قناة للعبور إلى شخصية صاحبه، سواء منها الفنية أو الوجدية ... وقد أقر بوفون Buffon: في كتابه (مقالات في الأسلوب): إن الأسلوب هو الرجل ... قال شوبنهاور Shopen hauer: الأسلوب هو ملامح التفكير، وقال عنه فلوبير floubert: بأنه طريقة مطلقة في تقدير الأشياء.²

إن هذه التعريفات والتحديدات تشير جُلّها إلى أن الأسلوب هو الطريقة أو فن القول، أو المنهج أو المسلك الذي يسير فيه أو عليه من يريد بلوغ هدف معين من قوله أو كلامه كما أنه يخضع لمؤثرات خاصة وعوامل توجهه وجهة معينة فتصبغه بصبغة متميزة، تلك المؤثرات حصرها علي أبو ملح في أصلين اثنين رئيسيين تتفرع عنهما بقية العوامل.

هذان العاملان هما : شخصية الأديب و موضوع الكتابة.

أما العامل الأول فيتعلق في الصفات النقدية، والعاطفية، والجسمية التي تكون عليها شخصيته والتي لها أثرها الكبير في نوعية الأساليب التي يظهر بها العمل الأدبي، فتصبغ بالتشاؤم والتفاؤل والشمولية، والجزئية والرقّة، والخشونة، والقوة، والركاكة ...

كما أنه -شخصية الأديب- تتأثر بالبيئة والجنس والثقافة والدين، فتتشأ عن ذلك أساليب مصبوغة بصبغة القيم الدينية والاجتماعية التي تطفو على حياة الأديب.

أما العامل الثاني فيتعلق بموضوعات الأدب التي يحصرها في الإنسان والطبيعة، و ما له من صلة بما يتأثر بهما أو يؤثر فيهما.³

¹ هزام محمد، الأسلوبية منهجا نقديا، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1989م، ص10.

² انظر، المرجع السابق، ص28.

³ بوحام محمد ناصر، السخرية في الأدب الجزائري الحديث، ص209.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

من خلال ما سبق نقول إن أسلوب التعبير يخضع لظروف معينة، فهو مختلف ومتنوع باختلافها وتنوعها، لهذا تنتوع أساليب الكتابة بما لا يمكن حصره في عدد معين، لأنها نتاج المشاعر المتدفقة التي لا تعرف التوقف وكلّها تبحث لها عن أية وسيلة للوصول إلى وعي المتلقي المخاطب أو المقصود بالخطاب.¹

والساخر نفسه هو أديب فنان يملك خيالا مرنا وعقلا راجحا ومشاعر محتدمة، وذكاء لمأحا وروحا مرحة، وقدرة على الصياغة، وملكة اختيار ما يحقق غرضه من الكتابة... فبفضل هذه المعطيات والامتيازات يتناول المسخور منه بالعبث والمداعبة، والتندر، والتهكم.²

*** معالجة الشيء الحقيق كأنه عظيم:**

أو ما يسمى في أدبنا العربي الذم بما يشبه المدح، ونضرب مثلا على هذا بمخاطبة عالم يستهزأ بجاهل قائلا له: قل لي يا سيدي الأستاذ أو أخبرني أيها العالم الجليل، أو مخاطبة القبيح قائلا: القمر يغار منك، بعضهم يسمي هذا النوع بالتهكم.³

*** تجاهل العارف أو التباه:**

وهي الطريقة التي أوثرت عن سقراط (ولد عام 469 ق.م) كسؤال الأب لابنه الراسب في الامتحان، وهو يعلم برسوبه: أنجحت في الامتحان؟⁴

*** التعريض:**

أسلوب يعتمد على التعبير غير المباشر و اللّعب بالمعاني من غير أن يكون بين المعاني تلاؤم مشروط وهو الكلام الذي لا يقصد به المتكلم معناه، وإنما يقصد معنى آخر وليس بين المعنيين تلازم.⁵

¹ انظر، المرجع نفسه، ص209.

² انظر، نعمان محمد أمين طه، السخرية في الأدب العربي، ص44.

³ انظر، المرجع نفسه، ص38.

⁴ انظر، المرجع نفسه، ص40.

⁵ بوحام محمد ناصر، السخرية في الأدب الجزائري الحديث، ص215.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

في التعريض ينال الأديب الساخر من المسخور منه ويعبث بخصمه بطريقة خفية، وذكىة ومؤلمة في الوقت نفسه، وبذلك يوفر التعريض الجمالية في التعبير والطرافة في القول، ومن ثم يبعث المتعة في نفس القائل، ونفس المستمع و المطلع على القول المعرّض.¹

من أمثله ما ورد عن محمد ناصر بوحجام في قضية العبث بهلالي رمضان والعيد، إذ كانت الحكومة الفرنسية تتصرف فيها كما تشاء، وذلك بإصدار أوامرها إلى رجال الدين الرسميين ليعلنوا عنهما حسب ما تقتضيه مصلحتها، حيث يعرض الأمين العمودي (1957/1890) برئيس جمعية علماء السنة الذي غاب عن ضيف قدم إلى الزاوية يقول: "الذي منعه من حضور هذا الحفل استعداده لوضع هلال رمضان في مكان يليق به". التعريض يبدو في هذا القدر و التنديد بصنع رئيس جمعية السنة الذي يبق أسير أو لرهن إشارات أسياده المستعمرين.²

*** الكاريكاتور:**

هو وضع الشخص في صورة مضحكة كالمبالغة في تصوير من أعضاء الجسم، ومحاولة تشويهه إلى حد ما حتى يجعل الشخص لا يدرك أو يعرف إلا بهذا العيب الذي جسده وكثره، ومن ذلك ضخامة الجسم أو نحافته، وبهذا يقف على جسد الشخص أو ملامح وجهه، خاصة الأنف الذي يعد مقياسا لشذوذ الذي يثير الضحك.

لهذا نلاحظ أن المصور الكاريكاتوري يميل إلى تأكيد طول الأنف أو انعدامه لما يضيفه هذا الشذوذ الهزلي على الوجه.

كذلك تصوير الفن تصويرا مهزليا لاتساعه، أو عدم انتظام أسنانه أو عيب في إحدى الشفتين.

¹ المرجع نفسه، ص215.

² المرجع السابق، ص218 .

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

كما يدخل في هذا النطاق ما يسمى بالشذوذ الحسي، كالأعمى والأصم، والأبكم، فهؤلاء يثيرون عاصفة من الضحك إذ سلخوا مسلكا يحاولون به إنكار ما فيهم من نقص.¹

ولا يكتفي المصور الكاريكاتوري (رساما كان أو كاتباً) بتصوير الشذوذ الخلفي يتخذ من السلوك الشاذ مادة خصبة لسخريته، لأن الساخر بما له من ذكاء و فطنة و خيال وحس مرهف واستعداد التعبير الطريف يتفطن إلى هذا الشذوذ، ويدرك الحركات غير العادية التي يعجز الغير عن إدراكها، فيضخمها ويهيئها ليراها الناس مشوهة حسب ما يهدف أو يرمي إليه مع تركيزه على النقط المثيرة فيها.²

*** السخرية عن طريق الصور الملفقة المضحكة:**

أو ما يسمى بالدعاوي الكاذبة كاختراع، النوادر، و النكت، و إضافتها إلى أغنياء الحرب، ومحدثي النعمة، و القرويين السذج الذين زاروا المدينة لأول مرة.

و يهاجم الساخر الجبان، و البخيل، و المتطفل، و المتسول أيضاً، و كل العيوب الاجتماعية الأخرى بالمبالغة في وصفها، اختراع الصور المبالغ فيها، وفي كتاب **البخل** للجاحظ أمثلة طريفة.³

*** مجابهة (مواجهة الشخص بعكس مايتوقع):**

ومن ذلك سرعة جواب الساخر ونعطي مثالا لما يحكي عن أحد الأمراء أنه أُلرد أن يسخر بالشاعر الفرنسي فيكتور هوجو (1802م-1885م)، فقال له: ألم يكن أبوك خياطاً؟ فقال فيكتور هوجو: بلى، فقال الأمير: ولماذا لم تكن خياطاً مثله؟ بنفس الطريقة سأل الشاعر (هوجو): وأنت أيها الأمير ألم يكن أبوك مهذباً فقال الأمير بلى: فقال الشاعر: ولماذا لم تكن مهذباً مثله؟

¹ انظر، نعمان محمد أمين طه، السخرية في الأدب العربي، ص41.

² انظر، المرجع نفسه، ص41 وما بعدها.

³ المرجع نفسه، ص32.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

هذا ما نلمسه حقا في كتاب "سيكولوجيا الضحك"، إذ يقول أحمد عطية الله: "يحاول المستهزء في بعض الأحيان إمعانا منه في الزهو بنفسه أو يدخل في روع الهزأة أنه حقا ذو شأن، وخطر حتى إذا ما أعتقد هذا الأخير ما أوهم به كشف المداعب عن حقيقته، فاحتفت الجدّ من وجهه وراح يضحك ساخرا من صاحبه الذي تذهله المفاجأة حتى يعجم عليه القول".¹

*** السخرية بالمفارقة:**

يستخدمها الساخر بمهارة في القصص.²

*** التلاعب اللفظي:**

الأساس فيه هو أن يحاول الساخر أن يكسب الألفاظ معاني غير معانيها الواضحة، فإذا ما اكتشف السامع أن ما يقصده المتكلم هو هذا المعنى الغريب يسخر من فهمه الأول لمعنى الجملة فيضحك، ويكون التلاعب اللفظي باختصار الفكرة أو بالإضافة إليها، حيث تخرجها عن معناها الأصلي أو بتبديل الكلمات المكونة لها أو غير ذلك.³

5. وظائف السخرية:

إن وظائف السخرية متعددة باعتبار الغايات التي يرمي إلى تحقيقها الساخر، وبسبب اختلاف الحالات النصية التي يكونون عليها، هذه الوظائف يمكن حصرها في وظيفتين أساسيتين رغم تداخل وظائف أخرى ضمنها هاتان الوظيفتان هما: الوظيفة الاجتماعية، و الوظيفة النفسية.⁴

إن أول ما يلاحظ عن السخرية نزعتها النقدية، فهي تحاول نقل كل ما تعجّ به الحياة من سلبيات وذلك بتتبع ما يجري في الواقع ونقده، ومعالجته، بهدف الإصلاح والتقويم، وهذا ما

¹ المرجع نفسه، ص 42.

² المرجع السابق، ص 45.

³ المرجع نفسه، ص 47.

⁴ انظر، بوحجام محمد ناصر، السخرية في الأدب الجزائري الحديث، ص 32.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

يعنيه حامد الهوال في تعريفه للسخرية بأنها أسلوب نقدي يهدف إلى بناء الحياة، فهذا النقد يساعد على تثبيت السمات التي تتسجم مع المجتمع من مكارم الأخلاق، والصدق، والوفاء ... وعلى محاربة الانحرافات الاجتماعية ويحس بنقائص المجتمع، وتوجيه الأفراد إلى سلوك اجتماعي قويم.¹

ومن وظائف السخرية أيضا:

- إشعار الإنسان بضرورة تقويم أخلاقه، وإلزامه بواجب المحافظة على تقاليده، وعاداته، ومقوماته، وحثه على إعادة النظر في علاقته بأفراد مجتمعه وضرورة توثيقها، وهذا بطريقة تنبيه لطيفة ولبقة.²

بالإضافة إلى ذلك تقوم السخرية بوظيفة تربوية مهمة هي: مساعدة الإنسان على تثقيف نفسه وكذا قدراته على توخي المنطق السليم و السديد.

بهذا تقوم النكت الساخرة بتهذيب العقل و تقويم التفكير و تكوين الذوق و تنمية الحس الجمالي في النفس، ومن هنا يحس الإنسان بضرورة إتقان عمله و أداء واجبه على الوجه الأكمل، ومما لا يدخل في دائرة التثقيف وتنمية الجمالية في النفس وتقليل الصلابة الاجتماعية الناتجة عن التعصب والتجبر في الفكر أو جفاف في الطبع، وضعف في المعرفة، فتقوم السخرية بعملية إنذار له بمختلف الوسائل بالحركة أو الإشارة، أو الكلمة.³

بالإضافة إلى ما سبق تساعد السخرية على قهر الخصم وتذليله؛ لكي ينقاد له، وهي تمنح المستبدّ فرصة التمادي في مجال القهر والإذلال والتسلط على الضعفاء لإيقافهم على ما هم علي الضعفاء لإيقافهم على ما هم عليه من الحرمان، والشفاء، والغفلة عن ذلك، وهذا بإغراقهم في التهكم و التفكه والسخرية والتلذذ بها، هذا ما أراد العقاد توضيحه عندما قال بأن

¹ المرجع نفسه، ص32.

² المرجع السابق، ص33.

³ إبراهيم الأبياري، الموسوعة الشوقية، د.ط، د.ت، ص37.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

النكتة تلطف وطأة الظلم وتوهم المظلوم أنه ينتقم لنفسه بعض الانتقام، فتَهوّن عليه الشدائد وتروضه على الصبر والانتظار، فهي من ثم معين للحكام على المحكومين...¹

6. مضار السخرية:

من مضار السخرية:

- في السّخرية مخالفة صريحة لأمر الله عزّ وجلّ ثم هي جالبة لسخطه مستوجبة لعذابه.

- السّخرية تفكّك عرى المجتمع وتجعل المستسخر به ناقما على السّاخر مترتبا به يحاول الانتقام لنفسه.

- السّخرية نذير شؤم للسّاخرين، فقد كان الغرق عاقبة قوم نوح الذين كفروا بالله وسخروا من نوح.

- السّخرية تفقد السّاخر الوقار وتسقط عنه المروءة.

- السّاخر يظلم نفسه بتحقير من وقّره الله عزّ وجلّ واستصغار من عظمه الله.

- السّخرية انتهاك صريح لحقوق الإنسان عامة، ومخلّة بمبدأ تكريم الإنسان على وجه الخصوص.

- السّخرية تميت القلب وتورثه الغفلة حتّى إذا كان يوم القيامة ندم السّاخر على ما قدّمت يداه، ولات ساعة مندم أن تقولَ نفسُ يا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السّاخِرِينَ.

- السّخرية من سمات الكفّار والمنافقين، وقد نهينا عن التّشبه بهم.

- في ارتكاب السّخرية اقتراف أمر محرّم نهى عنه الشّرع الحنيف.

- السّاخرون من النّاس في الدّنيا، يسخر منهم الله عزّ وجلّ، وأنبياءه الكرام.

- السّخرية تنسي الإنسان ذكر ربّه، وبذلك يخسر السّاخر نفسه ويلقي بها في النّار.

- السّخرية داء من أدواء الجاهليّة يجب تجنّبه والبعد عنه.

¹ انظر، بوحجام محمد ناصر، السخرية في الأدب الجزائري الحديث، ص 37.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

- اللَّامز لأخيه المؤمن السّاخر منه، إنّما يلمز نفسه ويسخر منها لأنّ المؤمنين كرجل واحد.

- السّخرية وما في معناها من الاستهزاء بالضّعفاء والمساكين والتّحقير لهم والإضرار عليهم، كلّ ذلك مبعد من الله عزّ وجلّ.

- على السّاخر أن يتوقّع عقوبته في الدّار العاجلة أيضا بأن يحدث له مثل ما حدث للمسخور منه.¹

7. النثر العباسي:

أصبح النثر في العصر العباسي متعدد الفروع، فهناك النثر العلمي، والنثر الفلسفي والنثر التاريخي، والنثر الأدبي الخالص، وكان في بعض صوره امتداداً للقديم، وكان في بعضها الآخر مبتكراً لا عهد للعرب به، على شاكلة ما هو معروف في كتابات سهل بن هارون والجاحظ، وظلت الخطابة مزدهرة في أوائل هذا العصر، وإن كان قد أسرع الذبول إلى الخطابة الحفلية، إذ لم تعد القبائل تقدم بوفودها على الخلفاء، كما كان الشأن في عصر بني أمية. أما الخطابة السياسية فظلت فترة نشيطة، بحكم دعوة بني العباس لأنفسهم، حتى إذا استقام لهم الأمر أصابها ما أصاب الخطابة الحفلية من الذبول، ومن خطبائهم المفوهين، أبو العباس السفاح، والمنصور، والمهدي والرّشيد والمأمون، ثم غلبت العجمة على خلفائهم، فلم يعودوا يخطبون في أيام الجمع، والأعياد إلا ما كان من الخليفة المهدي "255-256 هـ"...

واتسعت في هذا العصر المناظرات الكلامية، وحمل لواءها المعتزلة من أصحاب واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد ... ولا نبالغ إذا قلنا: إن المتكلمين من معتزلة، وغير معتزلة نهضوا بالنثر العباسي نهضة رائعة، فقد كان المتكلم لا يحسن الكلام والاحتجاج لآرائه إلا إذا أخذ نفسه بثقافة فلسفية واسعة ...

¹ صالح بن عبد الله بن حميد وعدد من المختصين، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ج10، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ط4، د.ت، ص4614.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

إن هذه البيئة هي التي وضعت قواعد البلاغة، والفصاحة لم تكن مبالغين، وإذا قلنا أيضا: إن هذه البيئة هي التي أتاحت للغة العربية مرونة الأساليب على أداء المعاني الدقيقة لم تكن مغالين، بل إننا نقول: إنها هي التي وضعت نماذج التعبير العباسي البليغ، فقد كانت تنفي الألفاظ المتوعدة الوحشية عن كلامها، كما كانت تنفي الساقط السوقي، فاختارت بذلك لغة متوسطة تقوم على الألفاظ الرشيقة ذات المخارج السهلة، كما تقوم على ضرب من التلاؤم الموسيقي هو نفسه الذي لاحظناه قبلا عند أسلافها من وعاظ العصر الأموي، والذي يكسو الكلام كسوة الازدواج، والترادف الصوتي البديع.

وكان كبار الأدباء في القرن الثاني جميعه يتخذون هذا الأسلوب الفصيح الوسط إمامهم ومثلهم، سواء أكانوا مترجمين مثل ابن المقفع، أم مدبجين لرسائل أدبية طريفة مثل سهل بن هارون، وقد بلغ القمة التي كانت تنتظره عند الجاحظ المتكلم، وهو أسلوب كان يوازن دقيقة بين طرافة المعاني، وإثارة الجمال في نفس القارئ والسامع، ولكن بدون كد ومجاهدة، ولذلك نسلك أصحابه في مذهب الصنعة، فهم لا يبالغون في تكلفهم، ولا يستدعون الألفاظ من بعيد، ولا يدققون فيها كل التدقيق، ولا يصفونها كل التصفية.

وبينما كان هذا المذهب قائما عند المتكلمين، وكبار الأدباء، والمترجمين كانت طلائع مذهب ثان من التصنيع، والتجميل تأخذ طريقها في بيئة الكتاب الرسميين من أصحاب الدواوين، فقد أخذوا يهذبون لغة رسائلهم السياسية غاية التهذيب، وما زالوا يبالغون في أناقة تعبيرهم، ودقة أدواقهم، حتى انفصلوا انفصالا تاما عن أسلوب الازدواج إلى أسلوب كله قطع زخرفية أنيقة، أو بعبارة أخرى أسلوب كله سجع وتتميق، وسنعرض لهذا المذهب في موضع آخر، أما الآن فنحن بأهم من نموا مذهب الصنعة في العصر العباسي بتأثير الثقافات الأجنبية الدخيلة، وهم ابن المقفع وسهل بن هارون والجاحظ، وكان أولهم مترجما، أم سهل والجاحظ فكان أدبيين يعنيان بكتابة الرسائل والكتب الأدبية، ولعلهما من أجل ذلك كانا يهتمان بفنهما

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

بتجويد أساليبيهما أكثر من اهتمام ابن المقفع، إذ كان اهتمامه ينصب غالباً على ما يترجمه وينقل معانيه، لا على طريقة الأداء والتعبير فيه.¹

8. تطور السخرية والفكاهة في العصر العباسي:

لقد تعقدت الحياة الحضرية بمختلف مظاهرها واتجاهاتها، فبدأ هذا التحول الفني يأخذ شكلاً منذ بداية العصر العباسي، وأخذ يتجه إلى تكوين مظهره الخاص ونوعيته التي تميزه. هذا التطور الكبير في مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعبرانية والثقافية كافة؛ لعله التطور الحضاري الذي كان سبباً رئيساً أدى إلى شيوع فن السخرية.² فقد ظهرت السخرية فناً واضحاً في مرحلة التحول الحضاري، فظلت السخرية تستقر وتتشكل حسب طبقات الشعراء والأدباء ومستوياتهم، وشخصياتهم ومدى علاقة نواتهم بمجتمعهم وما يعتريه من تغيرات.

ولا يميل الباحث لنظرية العاهات في تفسير سبب السخرية عند الشعراء، والأدباء، والمبدعين، والتي ترى في العاهات الخلقية والجسمية سبباً في ترك بصمات واضحة على اتجاههم نحو السخرية، فأصبحت العاهة "حافزاً للإبداع والتأمل، والاستعاضة عما يحسه الشاعر من نقص"³، حيث يحاولون أولاً تأكيد هذه النظرية بالتركيز على وصف الأديب الساخر بصفة من صفات النقص، فنجد أن بعضها وإن كان صحيحاً لا يكون له أثر في سخريته، وبعضها لا علاقة له بموضوع السخرية، وبعضها يأتي تجنياً وترتيباً لإثبات هذه النظرية، فإذا كان الحطيئة، والفرزدق، وبشار، وأبو دلامة، والجاحظ؛ أصحاب عاهات حقيقية، إلا أنهم عند الاستشهاد بجريير مثلاً يشيرون إلى أنه ولد لسبعة أشهر، فهل هذا هو سبب السخرية عنده؟ ونحن نعلم من خلال تجارب المجتمع أن المولود لسبعة يكون ذكياً وليس صاحب عاهة، أو

¹ انظر، شوقي ضيف (أحمد عبد السلام)، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص.ص 125.133.

² إبراهيم وليد عبد المجيد، الشعر الهزلي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 2001م، ص43.

³ المرجع نفسه، ص52.

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

معاقا، وأبو العيناء، وأبو علي البصير أصيبا بالعمى في الكبر، فهل ظهرت السخرية لديهما بعد العمى أو قبله؟ أم كانت آي أصل تكوينهم قبل العمى؟ وعندما لا يجدون عند أبي نواس نقصاً ما، أو عيباً جسدياً؛ وصفوه بعاهة نفسية، لأن أوصافه لا تسعفهم في ذلك.¹

أما أبو تمام فهو يعاني من حبسة شديدة إذا تكلم، وابن الرومي كان نحيلاً، كث اللحية أصابه الصلع والشيب في شبابه، فهل نسلم بأن ابن الرومي أبدع فنه الساخر لأنه كان أصلع الرأس، كث اللحية؟ وأن الجاحظ أصبح مدرسة في النثر العربي بسبب جحوظ عينيه ومظهره الخارجي؟

¹ الحصري (أبو إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني)، زهر الآداب وثمر الألباب، ج1، ضبطه وشرحه وعلق عليه وقدم له: يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م، ص57.

الفصل الثاني:

السخرية في ضوء كتاب

"البخلاء" للجاحظ

1. الجاحظ (عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي أبو عثمان):

كنيته أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، من بني كنانة، بن خزيمة من مضر. ولد في البصرة سنة 160 هـ تقريباً. ولقب بالجاحظ لجحوظ في عينيه. نشأ الجاحظ في بيت متواضع من أبوين فقيرين. ولم يتحدث الرواة عن أبيه، وإنما ذكروا جده الذي كان يعمل جملًا عند بني كنانة. توفي أبوه وهو طفل، فتعهّده أمّه، فكان لا بد أن يحيا في عز وضيق. وراح يبيع السمك والخبز ارتزاقاً على ضفاف نهر سيحان في البصرة.¹

ولمّا مات أبوه اضطر الجاحظ إلى ترك الكتاب لبيع السمك والخبز متجولاً في أحياء البصرة، بجوار نهر سيحان أو منتحياً ركناً من السوق ولكن الصبي عمر ما نسي الكتاب الذي انتزعته منه عوادي الدهر وما نسي ذلك العالم الرحب، عالم المعرفة ... فكثيراً ما كان ينتزع نفسه من عالم البيع ويذهب المساجد والدور ليستمع إلى الأحاديث والمناظرات التي كانت تدور هناك، وكان في المساء إذا توفر له المال يكتري دكاكين الوراقين على رواية ياقوت في "إرشاد اللأريب إلى معرفة الأديب" فيبيت فيها مرور الليل يقرأ وينسخ ما توفر.²

كان ميّلاً منذ حداثته إلى الدراسة والعلوم، فأكبّ على العلم يطلبه برغبة شديدة، فصار يختلف إلى بعض الكتاتيب، وحلقات المسجدين في البصرة، ثم في المريد، وهو سوق قرب البصرة كان في الإسلام كسوق عكاظ في الجاهلية. وكان المريد ميدان التنافس بين الخطباء والشعراء³

وقد تحدّته الحياة فولد في بيت لا أثر للعلم والجاه فيه، ويرد عن التحدي ليجني من العلم حتى لا يضارعه فيه أحد من معاصريه. ويعمل على طلب الجاه فيسطع نجمه حتى يخافه كتاب عصره، وينمي صلته بالخلفاء والوزراء والأعيان، ويطلب الحقيقة، ويعظم في طلبه

¹ الجاحظ، البخلاء، ص 6.

² كاظم حطيّط، دراسات في الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ط، د.ت، ص 26.

³ الجاحظ، البخلاء، ص 6.

ويظل يطلبها. لتكون أمام شخصية خصبة معطاء، رجة الأفق اجتماعية المنطق، رائدة في أكثر من فن وعلم واتجاه وإذا بالجاحظ شخصية مجتمعت في الأدب والثقافة.¹

فاكتسب الجاحظ علما وثقافة ومعرفة. وتلقى العلوم والآداب على أيدي جماعة من كبار أساتذة العصر وأدبائه ومفكره، فغدا طالب علم للأخفش، والأصمعي، وأبي عبيدة، وأبي زيد الأنصاري، يدرس عليهم، ويتعمق بعلمهم ومن ثم ينتقل إلى حلقة إبراهيم بن سيار فيتأثر به، ويضحى واحدا من المعتزلة كأستاده النظام البخلي أحد أئمة المفكرين، وشيخا للمعتزلة في ذلك العصر.

وكانت المعتزلة تؤمن بالعقل، كما كان علم الكلام والجدل موضوع كل مجلس، وكل منتدى، فنزع الجاحظ نزعة إعتزالية ... وإذا كان أساتذة عصره قد طبّعوا الجاحظ بميزات فكرية وأدبية ولغوية وعلمية فريدة، فإن المعتزلة تركت آثارها العقلية عميقة في كتاباته، وطرائق تفكيره وتأليفه. وبات له نمط واضح ثابت، يستدلّ عليه من كتبه، ومن موضوعاته.

ولم يمض وقت طويل حتى إذا أحس باكتمال القوى، قصد بغداد، وأقام فيها. وهناك بزغ فجر الجاحظ، وأخذ يتألق، واضعا كتبه الأولى منسوبة إلى عبد الله بن المقفع، وسهل بن هارون، ليقرأها الناس وتشيع بينهم. فأصبح اسم الجاحظ يتردد على كل شفة ولسان. وكثر الحاسدون، فأرادوا تقليد أسلوب الجاحظ، والانتقاص منه، إلا أنهم لم يفوزوا.

وقرأ له الخليفة المأمون بعض كتبه في الإمامة، فأعجب بها، وقدم إليه أبو عثمان كتاب "العباسية" فنال ثوابه. وما كان من الخليفة المأمون إلا أن أسند إليه ديوان الكتّاب، الذي لم يطل الإقامة فيه، وبعد ثلاثة أيام طلب الجاحظ من الخليفة إعفائه من هذه المسؤولية التي تحتم على صاحبها طبعاً رصينا، ومسلكية صارمة لا تتلاءم ومزاج الجاحظ وطباعه. وتوطدت روابطه بكبار رجال عصره، فاتصل الجاحظ بمحمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم،

¹ كاظم حطييط، دراسات في الأدب العربي، ص 27 وما بعدها.

الفصل الثاني: السخرية في ضوء كتاب "البخلاء" للجاحظ

وكتب له ومدحه، وأهداه كتاب «الحيوان» فأجازه الوزير بخمسة آلاف دينار، ثم أغدق عليه مالا كثيرا جعله يقوم برحلات عديدة إلى دمشق وأنطاكية ومصر...

ولما صارت الخلافة إلى المتوكل، نكب الوزير ابن الزيات بيد القاضي محمد بن أبي دؤاد، فهرب الجاحظ، ثم أعيد إلى القاضي مقيدا، مغلول العنق، معذرا عن فراره، وقد أبدى ابن أبي دؤاد إعجابه به، فقال: "أنا أثق بظرفه، ولا أثق بدينه". وقدم إليه الجاحظ كتابه "البيان والتبيين"، بعد أن انقطع إليه عاما كاملا. وتدرّجت اتصالاته حتى بلغت الفتح بن خاقان، فقدم له بعض كتبه. وجعله المتوكل مؤدبا لأولاده. ولما رأى بشاعته صرفه. وقد حدّث الجاحظ في ذلك عن نفسه، فقال: "ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده، فلما رأي استبشع منظري، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني".

واتصل أبو عثمان أيضا بإبراهيم بن العباس الصولي، وقد أهدى إليه كتابه "الزرع والنخل" فمنحه جائزة مقدارها خمسة آلاف دينار.

وفي أخباره أنه زار سامراء أيضا، واللاذقية، وحلب، إلى أن استقر في البصرة مركز تأليفه وكتاباته، وفيها شرع يصنّف ويؤلف، فأخذت حياته تتبدّل من الفقر إلى الغنى، ومن الصنعة إلى الانتشار، حتى ذاع صيته وملاً دنياه.

كان الجاحظ أسود اللون كجدّه فزارة، قصيرا، دميما، جاحظ العينين، قبيح المنظر. إلى أن قيل فيه:

لو يمسح الخنزير مسحا ثانيا ما كان إلا دون قبح الجاحظ

وهو نفسه كان يتحدث عن قبحه. فقد روي أن امرأة طلبت منه أن يصطحبها إلى دكانه أحد الصاغة، فلما وصلت هناك قالت للصائغ: "مثل هذا"، وانصرفت. فسأل الجاحظ الصائغ، ماذا قد عنت المرأة بقولها ذاك، فأجابه بأنها قد طلبت رسم صورة شيطان على فصّ خاتمها، فاصطحبتك لتمثيل صورته. وهذا ما يؤكد بشاعة الصورة التي كان عليها.

ومهما تكن تلك البشاعة، فإن الجاحظ لم يكن ثقیل الظل، وإنما كان لطيفاً محبوباً، عذب اللسان، قوي الشخصية. استطاع بصفاء قلبه، وصدق واقعيته، ونفسيته المرحّة أن يجمّل بشاعته ويزيل ما فيها من قرف واشمئزاز.

لقد تمتّع بطلاوة الحديث، ورطوبة الفكاهة، ورقة الدعابة. ومنح أبو عثمان ذكاء فائقاً، وملاحظة دقيقة، وصراحة مطلقة، وعقلاً راجحاً، وثقة وتفاؤلاً عميقين ما جعله رجلاً عزيز الجانب غير مكروه، ومحبباً غير محتقر.

ينتظر الناس فرحه الحاضر، وبديته اليقظة، انتظارهم كتاباته ونوادره وطرائفه. ظلّ الجاحظ عطاء يفيض، وفكراً يدفع، حتى أصيب بالفالج ثم بالنقرس. وقد عانى أبو عثمان من هذه الأمراض آلاماً شديدة قضت على عنفوان رجل أراد أن يستمرّ بعطائه الفكري من أجل الحياة والإنسان.¹

ولكن الشيخوخة حملت الجاحظ على ترك بغداد عائداً إلى مسقط رأسه البصرة ليقضي فيها بقية عمره مريضاً.

لكن المرض لم يحل بين الجاحظ وبين المطالعة والبحث ومتابعة التأليف واستقبال ولقاء الأدباء الذين كانوا يفدون إليه من كل حدب وصوب.²

وفلج في آخر عمره، فكان يطلي نصفه بالصندل والكافور لفرط الحرارة ونصفه الآخر لو قرص بالمقاريض ما أحس به لفرط البرودة، وسمي جاحظاً لجحوظ عينيه؛ أي لنتوئهما. وكان موته بسقوط مجلدات العلم عليه.³

وفي أواخر حياته، سعى إليه المتوكّل طالباً إيّاه، فأجابه الجاحظ: "وما يصنع أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل، ذي شقّ مائل، ولعاب سائل، ولون حائل؟". وقال المبرد: "دخلت

¹ الجاحظ، البخلاء، ص.ص 8.6.

² فاروق سعد، مع بخلاء الجاحظ، ص 18.

³ الجاحظ (عمر بن بحر بن محبوب الكنانى بالولاء الليثى أبو عثمان)، الحيوان، ج 1، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط 2، 1996م، ص 4.

على الجاحظ في آخر أيامه فقلت له: كيف أنت؟ قال: كيف يكون من نصفه مفلوج لو حَزَّ بالمناشير لا يشعر به، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه.¹
ولم يهجره الألم؛ بل تفاقم. وظل يرافقه مرافقة الكتب له. وما كاد يطوي صفحة من صفحاتها، حتى طوت سطور أيامه الأخيرة بسقوطها عليه، مشكّلة قبره الذي أحب مغمورا بالورق والأحرف والكلمات.

وهكذا كانت ميتة شهيد الكتاب سنة 255هـ.¹

توفي الجاحظ سنة 225هـ/ 868م من الفالج والنقرس، أو صرعته الكتب التي انهارت وسقطت فوق رأسه.²

عمرو بن بحر الجاحظ أبو عثمان البصري المعتزلي، وإليه تنسب الفرقة الجاحظية من المعتزلة، صنف الكثير في الفنون. كان بحرا من بحور العلم؛ رأسا في الكلام والاعتزال، وعاش تسعين سنة؛ وقيل بقي إلى سنة خمس وخمسين.³

للجاحظ أكثر من مئة وسبعين كتابا بين رسالة صغيرة ومؤلف، إلا أن معظم هذه الآثار لم يسلم. وإن عوامل كثيرة كانت سببا في ضياع مؤلفات عديدة لعباقرة عرب كالجاحظ. وبقي لنا بقية مما ألفه أبو عثمان وأودعه خزائن التراث العربي، نذكر منها: كتاب البيان والتبيين، وكتاب الحيوان، وكتاب البخلاء الذي نخصّصه هنا بالتفصيل. وإنك إذا قرأته قراءة عميقة وجدت، ما يرمي إليه صاحبه من أبعاد تتناول حياة العصر العباسي، وشؤون الناس، وما أحاط بها من تغيرات طارئة، وعادات دخيلة، وتقاليد غريبة، وأفكار جديدة على الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية.⁴

¹ الجاحظ، البخلاء، ص 9.

² جميل جبر، الجاحظ ومجتمع عصره، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، د.ط، 1958م، ص 4.

³ الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 4.

⁴ الجاحظ، البخلاء، ص 9.

يعطي الجاحظ، فتتعدد مصادر العطاء لديه، ويمارس لعبة الفكر في كل مجال، ويبرز معارفه في كل حقل، وتغزر آثاره، فلم ير لمؤلفاته رواجاً، أو بعد الصيت، وكان أن لجأ إلى الحيلة، فراح يوقع ما يؤلفه بأسماء أدباء مشهورين، كعبد الحميد الكتاب، وابن المقفع وغيرهما، وإذا هو قادر على الكتابة في كل موضوع يهم مجتمعه وعصره ليضع كتاب (الحيوان)، يعطي فيه آراءه وتجاربه واختياراته، فيضع فيهم كتاباً يشتمل على نوادرهم، وأخبارهم ووصف طباعهم إلى ما يقابل ذلك من نوادر الأجواد، وميزاتهم. إلى الكلام عن الحسد والحقد، والخبث والاقتصاد والتوفير. وشاء الجاحظ أن يعطي آراءه وآراء الآخرين في فن الكتابة فوضع (البيان والتبيين)، فإذا هو كتاب جامع في الأدب والإنشاء والخطابة والبلاغة ... وفيه نماذج من خطب النبي وخلفائه وغيرهم من الخطباء العرب المشهورين، ويؤلف الجاحظ كتباً ورسائل عديدة في (مناقب الترك) و(المحاسن والأضداد) والحنين إلى الأوطان، والإمامة وتهذيب الأخلاق والتبصر بالتجارة، وتتسع دائرة تأليفه، فيضع مئات الكتب التي وردت أسماء عدد منها في مقدمة كتاب (الحيوان) وله عشرات الرسائل في مواضيع شتى كالْحسد والمحسود، والسودان والبيضان، والتربيع والتدوير، والعشق والنساء، ومفاخرة الجواري والغلمان ...¹

أخذ عن القاضي أبي يوسف وثمame بن أشرس وأبي إسحاق النظام. قال في المغني: عمرو بن بحر الجاحظ المتكلم صاحب الكتب. قال ثعلب: ليس بثقة ولا مأمون؛ انتهى. وقال غيره: أحسن تأليفه وأوسعها فائدة كتاب الحيوان وكتاب البيان والتبيين، وكان مشوّه الخلق، استدعاه المتوكل لتأديب ولده؛ فلما رآه رده وأجازه؛ وفلج في آخر عمره، فكان يطلي نصفه بالصندل والكافور لفرط الحرارة ونصفه الآخر لو قرض بالمقاريض ما أحس به لفرط البرودة، وسمي جاحظاً لحجوظ عينيه؛ أي لنتوئهما. وكان موته بسقوط مجلدات العلم عليه.²

¹ طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، ص 26 وما بعدها.

² الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 4.

2. تأثير البيئة على أدب الجاحظ الساخر:

ظهرت في العصر العباسي مؤلفات وكتب تضمنت أدب الفكاهة والسخرية، حيث احتوى بعض هذه المصادر الأدبية مواد عديدة متنوعة، لكنه سجل أبواباً خاصة للفكاهة من بينها، وكتباً أخرى أفردت كاملة مستقلة لهذا الفن وحده، وبعضها كان ينثرها نثراً في ثنايا الكتاب ليردح بها عن القارئ، ويشير لذلك في منهجه بأنه يخلط الجد بالهزل ليشوق القارئ، ويزيل عنه السأم، فهو يعي ما يفعل ويعرف أهمية السخرية والفكاهة وأثرها في المجتمع.

1.2 البيئة العامة:

إذا نظرنا إلى المجتمع الواسع والبيئة الرحبة -في الدولة العباسية آنذاك- وجدناها حافلة بكل شيء، مليئة بكل عجيب مكتظة بشتى المتناقضات. فهناك السرف والترف، والحرية الفضفاضة البعيدة عن التزمّت، القريبة من الفوضى، واطراح الحشمة، ونبذ التقاليد والتحلل من التعاليم السامية، والأخلاق الكريمة، طرب وغناء، وسمر ورقصا، واتخاذ الندماء، وعقد مجالس الأنس والفكاهة، ودعوة الخلان إلى المجون والفسق، ومعاقرة الخمر، والغزل بالذكر، ومعاملته معاملة الأنثى، وذكر السوءات والعورات ...

وهكذا جاوز مجتمع "الجاحظ" حدوده، وتعدى مساره الطبيعي، فصار موضعاً للذم والهزاء، يقول "الجاحظ": "وأنا مبين لنا لك الحسنة: هو التمام والاعتدال، ولست أعني بالتمام تجاوز مقدار الاعتدال، كالزيادة في طول القامة، ودقة الجسم، أو عظم الجارحة، أو سعة العين أو الفم مما يتجاوز مثله من الناس المعتدلين في الخلق فإن هذه الزيادة متى كانت فهي نقصان من الحسن - إن عدت زيادة في الجسم - والحدود حاضرة لأمر العام ومحيطة بمقاديره الموقوفة لها، فكل شيء خرج عن الحدّ في خُلُق أو خُلُق - في الدين والحكمة اللذين هما أفضل الأمور - فهو قبيح مذموم."

وبهذا وضع الجاحظ قاعدة القبيح والمذموم، الذي يسخر منه ويهزئ به.

شهد كل ذلك عن قرب، وعاينه عن كثب، وإن فعل بهؤلاء وأولئك، فإذا المجتمع كله مهياً للضحك والإضحاك، باعث على التهكم والسخر.

2.2 البيئة الفكرية:

لقد تعددت في عهد "الجاحظ" الفرق الدينية وكثرت المذاهب وتتنوعت النحل، فكان منها "الصابئة" و"الرافضة" و"المرجئة" و"الزرادشتية" و"المانوية" و"الجبرية" و"الثنوية".

كما تعددت المدارس، ولكل مدرسة طابعها وطريقة تفكيرها، فمنها "مدرسة الرها" و"مدرسة نصيبين" و"مدرسة حران" و"مدرسة جينديا سبور" ...

وتتنوعت الثقافات من هندية، ويونانية، وفارسية، إلى بابلية، وفينيقية ومصرية، ورمانية وآشورية، وكلدانية ...

هذه الثقافات المتعددة، والمدارس المتنوعة، والفرق الدينية المتضاربة، والمذاهب والنحل والطوائف المتباينة، كان من المحتم أن تتعارك وتتصارع، وينتصر كل فريق لرأيه، ومدرسته، ومذهبه، فيشيع الهجاء وتنتشر السخرية، ويكثر الهمز واللمز.

ولقد عرف "الجاحظ" -بحق- مجتمعه، وخبر طوائفه، واعترك معها - محبذا رأيا ومعارضاً لآخر - مرة بالعنف والقسوة، ومرات باللين والهدوء طورا بالهجاء اللاذع والذم المقيت وفي أغلب الأحيان بالسخرية المريرة والتهكم الممض.

وذلك هو عصر "الجاحظ"، وتلك هي بيئته التي تفاعل معها وعاشها بعين النقادة البارع، والمصور الماهر، يغوص خلالها، ويجوس دروبها، لينقل صورها، ويودعها بطون كتبه ورسائله، ليروح عن القلوب، ويسري عن النفوس، ويترك لنا هذا التراث الهائل من العلوم والمعارف، وألوان الأدب الخالد.¹

¹ انظر، السيد عبد الحليم محمد حسين، السخرية في أدب الجاحظ، ص.ص 26-29.

3. البخل والشح:

قَالَ الْفَرُطِيُّ: قَالَ طَاوُسٌ: الْبُخْلُ أَنْ يَبْخَلَ الْإِنْسَانُ بِمَا فِي يَدِهِ، وَالشَّحُّ أَنْ يَشْحَ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ، يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَا فِي أَيْدِيهِمْ بِالْحِلِّ وَالْحَرَامِ. وَقَالَ ابْنُ مَنظُورٍ: الشَّحُّ أَشَدُّ الْبُخْلِ، وَقِيلَ الْبُخْلُ فِي أَفْرَادِ الْأُمُورِ وَأَحَادِهَا، وَالشَّحُّ عَامٌّ، وَقِيلَ الْبُخْلُ بِالْمَالِ، وَالشَّحُّ بِالْمَالِ وَالْمَعْرُوفِ. وَقَالَ أَبُو هِلَالٍ: الشَّحُّ: الْحِرْصُ عَلَى مَنَعِ الْخَيْرِ، وَالْبُخْلُ: مَنَعُ الْحَقِّ فَلَا يُقَالُ لِمَنْ يُؤَدِّي حُقُوقَ اللَّهِ بَخِيلٌ.

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - الْفَرْقُ بَيْنَ الشَّحِّ وَالْبُخْلِ أَنَّ الشَّحَّ هُوَ شِدَّةُ الْحِرْصِ عَلَى الشَّيْءِ وَالْإِحْفَاءُ فِي طَلَبِهِ وَالِاسْتِقْصَاءُ فِي تَحْصِيلِهِ وَجَشَعُ النَّفْسِ عَلَيْهِ، وَالْبُخْلُ: مَنَعُ انْفَاقِهِ بَعْدَ حُصُولِهِ وَحُبِّهِ وَإِمْسَاكِهِ، فَهُوَ شَحِيحٌ قَبْلَ حُصُولِهِ بَخِيلٌ بَعْدَ حُصُولِهِ، فَالْبُخْلُ ثَمَرَةُ الشَّحِّ، وَالشَّحُّ يَدْعُو إِلَى الْبُخْلِ، وَالشَّحُّ كَامِنٌ فِي النَّفْسِ، فَمَنْ بَخِلَ فَقَدْ أَطَاعَ شُحَّهُ، وَمَنْ لَمْ يَبْخَلْ فَقَدْ عَصَى شُحَّهُ وَوَقِيَ شَرَّهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْمُفْلِحُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9) [الحشر: 9]﴾.

ورد لفظ البخل في القرآن الكريم-بصيغته المختلفة- تسع مرات؛ في سبع آيات، ومن مرادفات البخل، ذكر لفظ الشح في القرآن الكريم-بصيغته المختلفة- خمس مرات؛ في أربع آيات، كما ورد لفظ القتر خمس مرات في خمس آيات.

وعن مرادفات البخل تقول العرب: فلان شحيح و الجمع أشحاء و أشحة، و ضنين و الجمع أضناء، و لئيم و الجمع لئام.

ويقال فلان شحيح النفس، ومكفوف الخير، و مغلول اليد عن الخير و الإحسان، و قصير اليد عن كل خير، و قصير الباع، و لئيم النفس و دقيقها و دنيئها، و البخل و الحرص، و الضن، و الإمساك، و الدناءة، و الدقة، و القبض، و القتر، و اللؤم، كلها ألفاظ مترادفة.¹
من الفوائد والدروس المستفادة من تلك الآيات، ما يلي:

¹ انظر، سعود بن عبدالله الحزيمي، الموسوعة الجامعة في الأخلاق والآداب، المجلد 1، ص 269.

الفصل الثاني: السخرية في ضوء كتاب "البخلاء" للجاحظ

* البخل و حب المال من طبائع البشر، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (128)﴾ [النساء: 128]، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا (100)﴾ [الإسراء: 100]، وقال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20)﴾ [الفجر: 20]

* علم الله تعالى بنوازع البخل و الشح و حب المال في النفوس البشرية، و منه أمره إياهم بإخراج جزء ضئيل من مالهم على سبيل الزكاة، قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَسْأَلُكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37)﴾ ها أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38)﴾ [محمد: 37، 38].

* من أسباب الإنفاق؛ العلم بأن المال هو مال الله، قال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7)﴾ [الحديد: 7، 8].

* فلاح من وقى من مرض البخل والشح، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّعُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9)﴾ [الحشر: 9]، وقال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16)﴾ [التغابن: 16].

* تقرير جهل من يمسك عن الإنفاق، و يضمن عن إخراج حق الله في المال، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (180)﴾ [آل عمران: 180]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11)﴾ [الليل: 8 - 11].

* من جرائم الأعمال حض الناس على البخل؛ والاستهزاء بالمتصدقين، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (37)﴾ [النساء: 37]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (79)﴾ [التوبة: 79]، وقال الله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَتُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (19)﴾ [الأحزاب: 19]، وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24)﴾ [الحديد: 24].

* من صفات البخلاء حرص على امتلاك كل شيء؛ و منعه على الناس، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (47)﴾ [يس: 47].

* البخل خصلة من خصال أهل الكفر وكذا المنافقين، قال الله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (67)﴾ [التوبة: 67]، وقال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (77)﴾ [التوبة: 75-77]، وقال الله تعالى: ﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12)﴾ [القلم: 12].

* الإنفاق يكون من غير إسراف ولا قتر، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (29)﴾ [الإسراء: 29]، وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67)﴾ [الفرقان: 67].¹

¹ انظر، المرجع السابق، المجلد 1، ص.ص 269.272.

الفصل الثاني: السخرية في ضوء كتاب "البخلاء" للجاحظ

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم." رواه مسلم.¹

قال العلامة ابن عثيمين رحمة الله تعالى عليه: "البخل: هو منع ما يجب وما ينبغي بذله. والشح: هو الطمع فيما ليس عنده، وهو أشد من البخل، لأن الشحيح يطمع فيما عند الناس ويمنع ما عنده، والبخليل يمنع ما عنده مما أوجب الله عليه من زكاة ونفقات، ومما ينبغي بذله فيما تقتضيه المروءة، وكلاهما -أعني: البخل والشح- خلقان ذميما.²

وَالشَّحِيحُ: حَرِيصٌ عَلَى مَا لَيْسَ بِيَدِهِ. فَإِذَا حَصَلَ بِيَدِهِ شَيْءٌ شَحَّ عَلَيْهِ. وَبَخِلَ بِإِخْرَاجِهِ. فَالْبُخْلُ ثَمَرَةُ الشَّحِّ. وَالشُّحُّ يَأْمُرُ بِالْبُخْلِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ. فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. أَمَرَهُمْ بِالْبُخْلِ فَبَخِلُوا. وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا.»³

¹ النووي (أبو زكرياء يحيى بن شرف)، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، محقق على منهج العلامة محمد ناصر الدين الألباني، مشتملة على تعليقات الشيخ محمد بن صالح العثيمين، حققه وعلق عليه محمود بن الجميل، راجعه طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الصفا، القاهرة، الطبعة الثانية، 1425 هـ/2004م، الحديث رقم 568، ص 182.

² محمد بن صالح العثيمين وآخرون، شرح رياض الصالحين، ج1، ملخص تحقيقات الحافظ بن حجر والهيتمي والشيخين الألباني والأرنؤوط، مركز التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1425 هـ/2004م، ص 824.

³ ابن قيم الجوزية (محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ج2، تح: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1416 هـ/1996م، ص 277.

الفصل الثاني: السخرية في ضوء كتاب "البخلاء" للجاحظ

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُبَيْرَةَ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو قَالَ: " أَيُّهُمَا أَشَدُّ: الْبُخْلُ، أَوِ الشُّحُّ؟ "، فَأَخْتَلَفُوا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو: "الشُّحُّ أَشَدُّ مِنَ الْبُخْلِ، الشَّحِيحُ يَشْحُ عَلَى مَا فِي يَدَيْهِ فَيَحْبِسُهُ، وَيَشْحُ عَلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ حَتَّى يَأْخُذَهُ، وَإِنَّ الْبَخِيلَ عَلَى مَا فِي يَدَيْهِ".¹

وقد أفرد ابن قدامة المقدسي في كتابه مختصر "منهاج القاصدين" بابا في ذم البخل والحرص والطمع وذر المال ومدحه ومدح القناعة والسخاء، ونحو ذلك، ومما قاله فيه: "اعلم: أن المال لا يذم لذاته بل يقع الذم لمعنى من الآدمي، وذلك المعنى إما شدة حرصه أو تناوله من غير حلة، أو حبسه عن حقه، أو إخراجه في غير وجهه، أو المفاخرة به، ولهذا قال الله تعالى: {رَأَى أَمْوَالَكُمْ وَأَوَّلَادَكُمْ فِتْنَةً} (الأنفال: 28)

وفى "سنن الترمذي" عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "ما ذنبان جائعان أرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه".

وقد كان السلف يخافون من فتنة المال. وكان عمر رضي الله عنه إذا رأى الفتوح يبكي ويقول: ما حبس الله هذا عن نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وعن أبي بكر لشر أراده الله بهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له.

وقال يحيى بن معاذ: الدرهم عقرب، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلك سمه. قيل: ما رقيته؟ قال: أخذه من حله ووضعه في حقه. وقال: مصيبتان للعبد في ماله عند موته لا تسمع الخلائق بمثلهما، قيل: ما هما؟ قال: يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كله.²

أبلغ ما قيل في البخل قول ابن الرومي:

يقتُر عيسى على نفسه وليس بباقي ولا خالد

¹ الخرائطي (أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاعر السامري)، مساوي الأخلاق ومذمومها، ج1، حققه وخرج نصوصه وعلق عليه: مصطفى بن أبو النصر الشلبي، مكتبة السوادى للتوزيع، جدة، ط1، 1413هـ/1993م، ص165.

² ابن قدامة المقدسي (نجم الدين أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن)، مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ الْقَاصِدِينَ، قدم له: الأستاذ محمد أحمد دهمان، مكتبة دار البيان، دمشق، د.ط، 1398هـ/1978م، ص195 وما بعدها.

فلو يستطيع لتقتيره
تنفس من منخر واحد

رضيتُ لتشتيت أمواله
يدي وأرث ليس بالحامد

والناس يظنون أن ابن الرومي ابتكر هذا المعنى وإنما أخذه مما رواه الجاحظ أن فلاناً

كان يغير إحدى عينيه ويقول إن النظر بهما في زمن واحد من السرف.¹

وأجود ما قيل في البخل قول بعضهم:

وعدت فأكدت المواعيد بيننا
وأقلعت إقلاع الجهام بلا وبلي

وأجرت لي حبلاً طويلاً تبعته
ولم أدر أن اليأس في طرف الحبلي

وقال أبو نواس:

رأيتُ قُذور الناس سوداً من الصلّى
وقدر الرقاشين زهراء كالبدري

يُبيتها للمعتفي بفنائهم
ثلاثاً كنقط الثاء من نُقط الحبر

إذا ما تتادوا للرّحيل سعى بها
أمامهم الحولي من ولد الذر

ولو جنتها ملأى عبيطاً مجزراً
لأخرجت ما فيها على طرف الظفر

غيره:

يحصن زاده عن كل ضرر
ويعمل ضرسه في كل زاد

ولا يروي من الآداب شيئاً
سوى بيت لأبرهة الأيادي

قليل المال تُصلحه فيبقى
ولا يبقى الكثير مع الفساد

وقلت في مثله:

يطعم دُونَ الشبع أولاده
ويختم البرمة والجفنه

لم يرو إلا خبراً واحداً
قد تذهب البطنة بالفطنة

¹ أبو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران)، ديوان المعاني، دار الجيل،

بيروت، د.ط، د.ت، ص 183 وما بعدها.

وقال آخر:

ظلمتك إذ سألتك ماء كرم وماء الكرم للرجل الكريم

وقلت:

لك بُرمة نَزَّهَتْهَا من أن تَدْنَسَ بالدَّسَمِ

بيضاء يُشْرِقُ نورُها كالبدْرِ في غسقِ الظلم¹

ومما أورده صاحب كتاب "التمثيل والمحاضرة": "البخل: شر أخلاق الرجال البخل والجبن، وهما من خير أخلاق النساء. البخيل أبداً ذليلٌ. لا مروءة لبخيلٍ. الشعبي: ما أفلح بخيلٌ قط. أما سمعتم قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (9) [الحشر: 9]. الواقدي: البخل بالموجود من سوء الظن بالمعبود. الجاحظ: الجبن والبخل غريزة واحدة، يجمعهما سوء الظن بالله. غيره: البخل يهدم مباني الكرم. ابن المعتز: بشر مال البخيل بحادثٍ أو وارثٍ. أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه.

وغیظ البخیل علی من یجو د أعجب عندي من بخله

وصف البخيل: العرب: سواءٌ هو والعدم. سواءٌ غناه والفقر. سواءٌ منزلته والفقر. ما تبلى إحدى يديه الأخرى. لا تتدى صفاته، ولا يبيض حجره، ولا يثمر شجره. يمنع دره ودر غيره. المولدون: لا تسقط من كفه خردلةٌ. سائله محرومٌ، وماله مكتومٌ. لا يحين إنفاقه، ولا يحلّ خناقه. خبزه كآوى، يسمع بها ولا ترى. غناه فقرٌ، ومطبخه فقرٌ. يملأ بطنه والجار جائعٌ، ويحفظ ماله والعرض ضائعٌ. قد أطاع سلطان البخل بجهده، وانخرط كيف شاء في سلكه. سمين المال مهزول النوال. عظيم الرواق صغير الأخلاق. يصون فلسه ويبذل نفسه. لا يحلب إلا من ضرعٍ بكى، ولا يسقى إلا من أنضب ركيّ. فلانٌ قد جعل ميزانه وكيله، وضرسه أكيله،

¹ المرجع السابق، ص 186.

الفصل الثاني: السخرية في ضوء كتاب "البخلاء" للجاحظ

وكيسه أنيسه، وخبزه جليسه، ورغيفه أليفه، ومأكوله حليفه، وديناره شقيقه، ودرهمه رفيقه، ويمينه أمينه، ومفتاحه دفينه، وصناديقه صديقه، وخاتمه خادمه.¹

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق" رواه البخاري.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: "لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً".
وفي أفراد مسلم، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقول: "اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل".

وروى جابر رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لبني سلمة: "من سيدكم؟ قالوا: جد بن قيس على أننا نبخله، قال: وأي داء أدوأ من البخل؟ بل سيدكم بشر بن البراء بن معرور" وهي أصح ما من ذكر عمرو بن الجموح، وغلط بعض الرواة، فقال: البراء بن معرور، البراء مات قبل الهجرة.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه".

قال الخطابي: الشح في المنع أبلغ من البخل، وقال سلمان: إذا مات السخي، قالت الأرض والحفظة: رب تجاوز عن عبدك في الدنيا بسخائه، وإذا مات البخيل قالت: اللهم احجب هذا العبد عن الجنة، كما حجب عبادك عما جعلت في يديه من الدنيا.

وقال بعض الحكماء: من كان بخيلاً ورث ماله عدوه، ووصف أعرابي رجلاً فقال: لقد صغر في عيني لعظم الدنيا في عينه، وذم أعرابي قوماً فقال: يصومون عن المعروف ويفطرون على الفواحش.²

¹ الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل)، التمثيل والمحاضرة، تح: عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، ط2، 1401هـ/1981م، ص440.442.

² ابن قدامة المقدسي، مُحْتَصَرُ مِنْهَا جِ الْقَاصِدِينَ، ص204 وما بعدها.

قال الوطواط: "فرقوا بين الشح والنحل فقالوا الشح أن تكون النفس كزة حريصة على المنع كما قال الشاعر:

يمارس نفساً بين جنبيه كزة
إذا هم بالمعروف قالت له مهلاً

وهو اللؤم وأما البخل فهو المنع نفسه.¹

قال المقدسي: "وقد تكلم الناس في حد البخل والسخاء، فذهب قوم إلى أن حد البخل منع الواجب، وأن من أدى ما يجب عليه، فليس ببخيل، وهذا غير كاف، فإن من لم يسلم إلى عياله إلا القدر الذي يفرضه الحاكم، ثم يضايقهم في زيادة لقمة أو ثمرة فإنه معدود من البخلاء، فالصحيح أن البراءة من البخل تحصل بفعل الواجب في الشرع واللازم بطريق المروءة مع طيب القلب بالبذل.

فأما الواجب بالشرع، فهو الزكاة، ونفقة العيال، وأما اللازم بطريق المروءة، فهو ترك المضايقة، والاستقصاء عن المحقرات فإن ذلك يستفتح، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص، فقد يستقبح من الغنى ما لا يستقبح من الفقير، ويستقبح من الرجل المضايقة لأهله وأقاربه وجيرانه ما لا يستقبح من الأجانب، فالبخيل الذي يمنع ما لا ينبغي أن يمنع، إما بحكم الشرع أو لازم المروءة. ومن قام بواجب الشرع، ولازم المروءة، فقد تبرأ من البخل، لكن لا يتصف بصفة الجود مالم يبذل زيادة على ذلك.²

"وقالوا البخيل لا يستحق اسم الحرية فإنه يملكه ماله وقالوا أيضاً البخيل لا مال له إنما هو لما له وقال قيس بن معد يكرب لبنيه يا بني إياكم والبخل فإنه من اكتسب مالاً فلم يصن به عرضاً بحث الناس عن أصله، فإن كان مدخولاً هرتوه وإن لم يكن مدخولاً ألزموه ذنباً رموه به ومقتوه وأكسبوه عرفاً هجيناً حتى يهجنوه والبخل داء ونعم الدواء السخاء وقال الحسن البصري

¹ الوطواط (أبو إسحق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي)، غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ضبطه وصححه وعلق حواشيه ووضع فهرسه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1429هـ/2008م، ص361.

² ابن قدامة المقدسي، مُحْتَصَرُ مِنْهَا جِ الْقَاصِدِينَ، ص206 وما بعدها.

لم أر أشقى بماله من البخيل لأنه في الدنيا مهتم بجمعه وفي الآخرة محاسب على منعه غير آمن في الدنيا من همه ولا ناج في الآخرة من إثمه عيشه في الدنيا عيش الفقراء وحسابه في الآخرة حساب الأغنياء ... وقالوا البخل يهدم مباني الشرف ويسوق النفس إلى التلف وقالوا اتق الشح فإنه أذنس شعار وأوحش دثار وقالوا البخيل يملأ بطنه والجار جائع ويحفظ ماله والعرض ضائع.¹

للحطيئة يغرق في ذكر البخل وحده:

فصادفتُ جُلُوداً من الصخرِ أَمَلَسَا	كددتُ بأظفاري وأعملتُ مِغُولِي
وأطرقَ حتى قلتُ قد مات أو عَسَى	تشاغلَ لما جئتُ في وَجْهِ حاجَتِي
يفوقُ فواقَ الموتِ حتى تنفَسَا	وأجمعتُ أن أنعاهُ حين رأيتهُ
فأفرَحَ تعلوهُ السماديرُ مبلَسَا ²	فقلتُ له: لا بأسَ لستُ بعائِدٍ

ورد في مدح الكرم وذمّ البخل: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "اصطناع المعروف يقي مصارع السوء".

وقال عليه الصلاة والسلام: "إن الله يحب الجود ومكارم الأخلاق ويبغض سفافها".
وقال النبي صلى الله عليه وسلم لقوم من العرب: "من سيّدكم؟" قالوا الجدّ بن قيس على بخل فيه، فقال صلى الله عليه وسلم: "وأي داء أدوأ من البخل".
وقال أكثم بن صيفي حكيمة العرب: ذلّلوا أخلاقكم للمطالب، وقودوها إلى المحامد، وعلموها المكارم، ولا تقيموا على خلق تدمّونه من غيركم، وصلوا من رغب إليكم، وتحلّوا بالجود يكسبكم المحبة، ولا تعتقدوا البخل فتتعجلوا الفقر.

أخذه الشاعر فقال:

أمن خوف فقر تعجّلته وأخرت إنفاق ما تجمع

¹ انظر، الوطواط، غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة، ص363.

² قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص32.

فصرت الفقير وأنت الغنيّ وما كنت تعدو الذي تصنع¹

قال الجاحظ للحزامي: أترضى أن يقال لك بخيل؟ قال: لا أعدمني الله هذا الاسم؛ لأنه لا يقال لي بخيل إلا وأنا ذو مال، فسلم لي المال وسمّني بأي اسم شئت! فقال: جمع الله لاسم السخاء المال والحمد، وجمع لاسم البخل المال والذم.

قال: بينهما فرق عجيب وبون بعيد: إن في قولهم بخيل، سببا لمكث المال؛ وفي قولهم سخي، سببا لخروج المال عن ملكي؛ واسم البخيل فيه حفظ وذمّ، واسم السخي فيه تضييع وحمد، والمال ناض نافع، ومكرم لأهله، والحمد ريح وسخرية، ومسمعة وطرمذة؛ وما أقل غناء الحمد عنه إذا جاع بطنه، وعري ظهره، وضاع عياله، وشمت به عدوه! وقال محمد بن الجهم: من شأن من استغنى عنك أن لا يقيم عليك، ومن احتاج إليك أن لا يزول عنك؛ فمن حبك لصديقك وضنك بمودته أن لا تبذل له ما يغنيه عنك، وأن تتلطف له فيما يحوجه إليك وقد قيل في مثل هذا: أجمع كلبك يتبعك، وسمّنه يأكلك؛ فمن أغنى صديقه فقد أعانه على الغدر، وقطع أسبابه من الشكر؛ والمعين على الغدر شريك الغادر، كما أن مزيّن الفجور شريك الفاجر.²

نختم كلامنا بمناظرة بين السخاء والبخل: وتناظرا يوما فقال البخل: أنا أفضل فإنني سبب الغنى وأنت سبب الفقر فصاحبي يمسكني فيصبح غنيا وصاحبك ينفقك فيصبح فقيرا فأنا قوة القلب وأنا حارس العرض وأنا قائد الغنى ويشير العلا وسائق الجيش وأنا أورث المال والفرج وأحفظ البيوت والدنيا وأغنى عن القرض وأذب عن العرض وأغنى عن الناس والغنى عن الناس هو الغنيمة العظمى والدولة الكبرى وأنا وأنا.

واحتج عليه السخاء فقال:

يا فل ابن فل يا ملوما بكل لسان يا مذموما عند كل إنسان أتتكلم في هذا الزمان أما تستحي يا ابن الزانية والزاني وأنا ممدوح بكل لسان محمود عند كل إنسان أنا سبب المحبة أنا

¹ ابن عبد ربه الأندلسي (أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم)، العقد الفريد، ج1، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1404هـ، ص189.

² المرجع السابق، ج7، ص219.

سبب الذكر الجميل أنا سائر العيوب أنا الذي إذا عثرت أخذ بيدي ربي أنا الذي يشار إليّ بالأصابع أنا الذي يحبني كل أحد أنا أنفع في الدنيا والآخرة أنا الذي وجودي للمنفعة وأنت الذي وجودك للمضرة والله جواد كريم وإبليس شحيح بخيل وكل سخي في الجنة وكل بخيل في النار وأنا شجرة في الجنة وأنت شجرة في النار وأنا قريب من الله وأنت بعيد من الله قريب إلى النار وأنا يحبني كل أحد وأنت يبغضك كل أحد وأنا أكون مع المؤمنين وأنت تصبح مع الكافرين ولي منشور توقيعه هذا دين أرتضيه لنفسي ولن يصلحه إلا السخاء ولك منشور توقيعه سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة وأنا مع الأنبياء وكل نبي وولي سخي وأنت مع اليهود والنصارى. فلما حاجة بهذه الدلائل فكأنه ألقمه الحجر فهرب البخل إلى ديار الكفر خجلا وجلا نادما سادما منقطعا فأمر الشرع حتى ينادي ألا فاسمعوا وعوا خلق الله الإيمان وحفه بالسخاء وخلق الكفر وحفه بالبخل والبخل دهليز الكفر كما أن الرفض دهليز الإلحاد والطعن في الصحابة قاعدة الزندقة ومسألة قتل الحسين شجرة الفتنة وكل سخي فيه شعب وخصال من الإيمان وكل بخيل فيه خصلة من الكفر فإن قلت حاتم كان سخيا وكان من الكافرين فأقول حاتم قد نفعه السخاء فورب السماء قال النبي صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم: إن الله تعالى أمر أن يبنى بيت في النار من الطين لأجل أبيك ظاهره عذاب وباطنه راحة جزاء على سخاوته فالقاعدة صحيحة فافهم ذلك.¹

4. تجليات السخرية في كتاب "البخلاء":

يصور كتاب "البخلاء" أحوال فئة من الناس اتخذت لنفسها منهجا معيناً في التفكير والتصرف والسلوك. وبانت مقتتعة به اقتناعا كاملا، تبددت في ظله كل الأشياء الأخرى. فإذا البخل هو واقعهم ومفهومهم وحياتهم التي يسيرون عليها، محاولين إسدال ستار من العلم عليه، علّمهم في ذلك يقنعون الناس إيهاما بأنهم أصحاب فكر ومنطق، ورجال تدبير، وذو واقتصاد وتوفير.

¹ الخوارزمي (أبو بكر محمد بن العباس)، مفيد العلوم ومبيد الهموم، المكتبة العنصرية، بيروت، د.ط، 1418هـ، ص.ص 203.201.

كان الجاحظ في كتاب البخلاء عالما شأنه في جميع مؤلفاته. كان عالما طبيعيا في كتاب "الحيوان"، وعالما نقديا في "البيان والتبيين"، وها هو عالم اجتماعي وناقد في كتاب البخلاء، يدرس أحوال الناس من خلال سلوكهم ومعاشهم، يحلل أوضاع طبقة من المجتمع العباسي تأثرت بعوامل طارئة جديدة.

استهل كتابه بردّ على صديق طلب إليه أن يحدثه عن البخل ونوادره. وقد صدره بمقدمة طويلة، حاول فيها أن يثير اهتمام القراء، وأن يشعرهم بشيء من الرغبة والتشويق. ومن المقدمة انتقل إلى إثبات رسالة سهل بن هارون التي بعث بها إلى بعض أقربائه، الذين اتهموه بالبخل. وعمد الجاحظ أيضا إلى ذكر نوادر البخلاء وسرد قصصهم، بادئا بأهل مرو، وأهل خراسان، متوقفا عند أهل البصرة من المسجديين ممن يسميهم "أصحاب الجمع والمنع"، منتقلا إلى الأشحاء من أصحابه ومعاصريه كزبيدة بن حميد، وأحمد بن خلف اليزيدي، وخالد بن يزيد، وأبي محمد الخزامي، والحارثي، والكندي، وابن أبي بردة، واسماعيل بن غزوان، وموسى بن عمران، والأصمعي، والمدائني وطرائف شتى، استطاع من خلالها أن يعطينا عيّنة صادقة عن كل حيلة، وكل نادرة بأسلوب قصصي طريف، وبراعة فنيّة رائعة. وبعد ذكر نوادره يجد الجاحظ أن البخل عندهم اقتصاد فني، ولهم في ذلك آراء قلما تخطر ببال إنسان.

وللبخلاء عند الجاحظ أقوال كثيرة في وضع كل شيء موضعه، في إظهار منافع المأكولات وأضرارها، فنوى الثمر يعقد الشحم في البطن، وقشور الباقلاء تحتوي الغذاء "إن الباقلاء يقول: من أكلني بقشوري فقد أكلني، ومن أكلني بغير قشوري فأنا الذي آكله."

وأما غاية الكتاب هذا، فإننا نجد أن فريقا من الدراسين ذهب إلى أن الجاحظ أراد منه الترويح عن النفس، وإضحاك القاريء. ولكن مهما يكن من أمر، فإن أبا عثمان لم يكن يقنع نفسه بأن مؤلفه هذا قد وضع من أجل الهزل والتسلية، إنما له فيه أيضا غاية جليلة؛ وهي تصوير طبقة محددة ظهرت في المجتمع العباسي، أرادت أن تسلك طريقا جديدة من العادات والأخلاق التي لم يألفها العربي سابقا. وإن مؤثرات دخيلة أحدثت فجوات واسعة في عادات العرب وتقاليدهم، فكان منها انتشار البخل، وخاصة في العراق إبّان القرن الثالث الهجري.

الفصل الثاني: السخرية في ضوء كتاب "البخل" للجاحظ

والحقيقة، فإن غاية الكتاب تتعدى الضحك والمرح، لتغدو أعمق وأشد، فإذا هي أقرب إلى الردع والتأنيب، والهزء والسخرية، وذلك من أجل المنفعة العامة والاستفادة من أعمال البخل الشاذة استفادة تجعلهم يميلون إلى الكرم من غير إسراف، وإلى الجود في غير اقتصاد. وهناك فريق آخر من الدارسين رأى أن كتاب "البخل" ما وضع إلا لأن الجاحظ كان واحداً من أولئك البخل، ولذلك تمكّن من معرفة أحوالهم بدقة، كاشفاً حقائقهم كما هي بصدق وواقعية.

والواقع أن كتاب البخل يعتبر من الكتب النفيسة بمكان، لأنه دراسة واقعية لردة فعل اقتصادية. ومن أجل ذلك أفرد الجاحظ كتاباً خاصاً بالبخل صور هذه الحالة، وتغلغل أيضاً بين طوايا النفس البشرية، وتفهم نزعاتها، وحلّل أعمالها، ودرس نفسياتها، وقد قال: "ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء تبين حجة طريفة، أو تعرف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة."

لقد اتّبع الجاحظ أسلوباً قصصياً إخبارياً يربط الأخبار بعضها ببعض.

وكانت أقصوصة البخل قصيرة، لكنها جمعت عناصر القصة الكاملة، من مقدمة وعرض وعقدة، إلى حل وخاتمة.

ولم تكن أقاصيص الجاحظ خاوية فارغة؛ بل كانت نابضة مليئة بالحياة تستمد موضوعاتها من وحي فريق من الأشقاء المسجدين والخراسانيين وغيرهم، اختاروا أحاديثهم، وانتقوا ألفاظهم بأنفسهم. من هنا نضجت أقصوصة البخل عند أبي عثمان، واستمرت حارة دافئة يقظة، تدفئ النفس فتثيرها، وتوقظ العقل فتحرّكه تارة بين الاسترخاء والاستمتاع، وطورا بين التصوير والتحكيم.

وقد تميّز كتاب "البخل" بخصائص هامة كان منها الموضوعية التي برزت جليّة في كتابه، إذ إن الجاحظ تجرّد من ذاته، وترك البخل أنفسهم يتحدثون عن قضاياهم، دون أن يدخل نفسه شريكا أو موجهها في الصورة، أو في الموضوع.

ولم تجر أقاصيصه على وتيرة واحدة؛ بل كانت كل منها تغطي على الأخرى من حيث النكهة والموضوع والأسلوب. وبقيننا أن أسلوبه الصامت هذا، كان من الأساليب التي أدت إلى نجاح نواته وتحليل نفسيات بخلائه.

لقد رسم أبو عثمان بخلاءه بريشته الماهرة الساخرة التي يصعب على المتقدمين والمتأخرين استعمالها، أو إجادة التصوير بها، لأنها ريشة متميزة لها خصائصها الأسلوبية والذوقية والنفسية التي طبعت أدب الجاحظ بطابع خاص متفرد.

كان الجاحظ في كتاب "البخلاء" فنانا بطبعه اعتمد لونا أساسيا، وهو الذات البشرية. فغاص إلى أعماقها، يستنبط ما في جوانبها من عقد وغبابة وغموض. فهو لم يقص حكاياته لإثارة تلك الغرابة، وإنما للدلالة على تلك المواقف النفسية والتعقيدات التي كان يعانيها البخلاء في عصره.

وبالإضافة إلى ذلك، فإننا لا نغفل الأسلوب المسرحي الذي تحقق له في كل نادرة، وخاصة في أقصوصة "مريم الصناع" و"شيخ النخالة" و"معآة العنبرية"، فإننا وبحق نجد أنفسنا أمام خشبة مسرح تقوم عليها هذه الشخصيات وتتهض وتتحرك كأنها من لحم ودم.

ومما ينبغي أن نقوله في كتاب "البخلاء" إن صاحبه لم يصل من خلاله إلى غاية واحدة، بل بلغ به غايات أخرى أكثر شمولية وإحاطة بدراسة الفرد والمجتمع والإنسان.¹

يقول الجاحظ ردّا على صديق طلب إليه أن يحدثه عن البخل ونواته. وذلك سبب تأليفه لكتابه "البخلاء"، والذي صدره بمقدمة طويلة نذكر منها: "فأما ما سألت من احتجاج الأشخاء، ونوادر أحاديث البخلاء، فسأوجدك ذلك في قصصهم، إن شاء الله تعالى، مفرقا وفي احتجاجهم مجملا، فهو أجمع لهذا الباب من وصف ما عندي، دون ما انتهى إليّ من أخبارهم، على وجهها. وعلى أن الكتاب أيضا يصير أقصر، ويصير العار فيه أقل.

¹ انظر، الجاحظ، البخلاء، ص.ص 12.9.

الفصل الثاني: السخرية في ضوء كتاب "البخلاء" للجاحظ

ونبتدئ برسالة «سهل بن هارون» ثم بطرف أهل «خراسان» ، لإكثار الناس في أهل خراسان.

ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبيّن حجة طريفة، أو تعرّف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة. وأنت في ضحك منه، إذا شئت، وفي لهو، إذا مللت الجدّ.

وأنا أزعّم أن البكاء صالح للطبائع، ومحمود المغبّة «3» ، إذا وافق الموضع، ولم يجاوز المقدار، ولم يعدل عن الجهة، ودليل على الرقة، والبعد من القسوة، وربما عدّ من الوفاء، وشدة الوجد على الأولياء. وهو من أعظم ما تقرب به العابدون، واسترحم به الخائفون.

وقال بعض الحكماء لرجل اشتد جزعه من بكاء صبيّ له: لا تجزع، فإنه أفتح لجرمه، وأصح لبصره.

وضرب «عامر بن عبد قيس» بيده على عينه، فقال: جامدة شاخصة، لا تتدى. وقيل: «لصفوان بن محرز»، عند طول بكائه، وتذكّر أحزانه: «إن طول البكاء يورث العمى» ؛ فقال: «ذلك لها شهادة» فبكى حتى عمي.

وقد مدح بالبكاء ناس كثير، منهم يحيى البكاء، وهيثم البكاء. وكان «صفوان بن محرز» يسمى: «البكاء». وإذا كان البكاء (وما دام صاحبه فيه فإنه في بلاء، وربما أعمى البصر، وأفسد الدماغ، ودل على السّخف، وقضي على صاحبه بالهلع، وشبه بالأمة اللكعاء وبالحدث الضّرّع) كذلك، فما ظنك بالضحك الذي لا يزال صاحبه في غاية السرور، إلى أن ينقطع عنه سببه.

ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك، وقبيحا من المضحك، لما قيل للزهرة والحبرة والحلي والقصر المبني: «كأنه يضحك ضحكا» .

وقد قال الله جل ذكره: «وأنه هو أضحك وأبكى وأنه قد أمات وأحيا»، فوضع الضحك بحذاء الحياة، ووضع البكاء بحذاء الموت؛ وأنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح، ولا يمن على خلقه بالنقص.

الفصل الثاني: السخرية في ضوء كتاب "البخلاء" للجاحظ

وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما، ومن مصلحة الطباع كبيرا، وهو شيء في أصل الطباع وفي أساس التركيب؟ لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي، وبه تطيب نفسه، وعليه ينبت شحمه، ويكثر دمه الذي هو علة سروره، ومادة قوته.

ولفضل خصال الضحك عند العرب، تسمي أولادها «بالضحاك» و«ببسام» و«بطلق» و«بطلق».

وقد ضحك النبي، صلى الله عليه وسلم، ومزح، وضحك الصالحون ومزحوا، وإذا مدحوا قالوا: «هو ضحك السن، وبسام العشيات، وهش إلى الضيف، وذو أريحية» 2 واهتزاز، وإذا ذموا قالوا: «هو عبوس، وهو كالح» 3، وهو قطوب، وهم شتم المحيا، وهو مكفهر أبدا، وهو كرية، ومقبض الوجه، وحامض الوجه، وكأنما وجهه بالخل منضوج»!. وللضحك موضع وله مقدار، وللمزح موضع وله مقدار، متى جازهما أحد، وقصر عنهما أحد، صار الفاضل خطلا، والتقصير نقصا.

فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر، ولم يعيبوا المزح إلا بقدر، ومتى أريد بالمزح النفع، وبالضحك الشيء الذي له جعل الضحك، صار المزح جدا، والضحك وقارا.

وهذا كتاب لا أغرك منه، ولا أستر عنك عيبه، لأنه لا يجوز أن يكمل لما تريده، ولا يجوز أن يوفى حقه، كما ينبغي له. لأن ههنا أحاديث كثيرة، متى اطلعنا منها حرفا عرف أصحابها، وإن لم نسمهم، ولم نرد ذلك بهم وسواء سميناهم، أو ذكرنا ما يدل على أسمائهم، منهم الصديق والولي والمستور والمتجمل، وليس يفي حسن الفائدة لكم، بقبح الجناية عليهم.

فهذا باب يسقط البتة، ويختل به الكتاب لا محالة، وهو أكثرها بابا، وأعجبها منك موقعا. وأحاديث آخر ليس لها شهرة، ولو شهرت لما كان فيها دليل على أربابها، ولا هي مقيدة أصحابها، وليس يتوفر أبدا حسننها إلا بأن يعرف أهلها، وحتى تتصل بمستحقها، وبمعادنها، واللائقين بها؛ وفي قطع ما بينها وبين عناصرها ومعانيها، سقوط نصف الملح، وذهاب شطر النادرة.

ولو أن رجلاً ألزق نادرة «بأبي الحارث جَمِين»، «والهيثم بن مطهر»، و«بمزبد»، و«ابن أحمر»، ثم كانت باردة، لجرت على أحسن ما يكون.

ولو ولّد نادرة حارّة في نفسها، مليحة في معناها، ثم أضافها إلى «صالح بن حنين» وإلى «ابن النواء»، وإلى بعض البغضاء، لعادت باردة، ولصارت فاترة، فإن الفاتر شرّ من البارد.

وكما أنك لو ولّدت كلاماً في الزهد، وموعظة الناس، ثم قلت: هذا من كلام «بكر بن عبد الله المزني» و«عامر بن عبد قيس العنبري»، و«مؤرق العجلي» و«يزيد الرقاشي»، لتضاعف حسنه، ولا حدث له ذلك النسب نضارة ورفعة لم تكن له.

ولو قلت: قالها «أبو كعب الصوفي»، أو «عبد المؤمن» أو «أبو نواس» الشاعر أو «حسين الخليل»، لما كان لها إلا ما لها في نفسها، وبالحرى أن تغلط في مقدارها، فتبخس من حقّها.

وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافة إلى أربابها، وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها، أما بالخوف منهم، وأما بالإكرام لهم.

ولولا أنك سألتني هذا الكتاب لما تكلفته، ولما وضعت كلامي موضع الضيم والنقمة، فإن كانت لائمة أو عجز، فعليك، وإن كان عذر، فلي دونك.¹

"لقد عمل أبو عثمان على تقديم عدد من البخلاء في عصره، و ما سبقه من عصور وإذا هو يعرضهم في كتابه في أكثر من حالة من حالاتهم، فيذكر نوادرهم و احتجاجهم، وما يجوز من ذلك في باب الهزل وما يجوز منه في باب الجد، وتتضح في ذلك بعض جوانب نفوسهم، وما لذلك من تأثير على الآخرين في مجتمعهم حتى يصل معهم إلى حافة مآسي اجتماعية كما هو الشأن مع البخيل الذي (طلق امرأته وهي أم أولاده، لأنه رآها غسلت خوانا له

¹ الجاحظ، البخلاء، ص.ص 25.21.

الفصل الثاني: السخرية في ضوء كتاب "البخلاء" للجاحظ

بماء حار، وكان يريد لها أن تكفي لمسحه). إن تأثير أولئك البخلاء يتجاوز أحيانا أسرهم إلى غيرها من فئات المجتمع.¹

"عمل الجاحظ في كتاب البخلاء على التعمق في كشف نفسية أشخاصه فإذا هو يقدمهم تقديمًا مسرحيًا فيعدد أوضاعهم وحالاتهم كما هو الحال مع المسجدين والمروزيين والكندي وغيرهم.

وتبدو أمراضهم وعيوبهم النفسية كالشح والطمع والحسد والجشع، ويدل الكاتب بذلك على مقدرة رائعة في استشفافه النفوس، ومعرفة أعماقها وأسرارها.²

"وإن وجدتم في هذا الكتاب لحنا أو كلاما غير معرب، ولفظا معدولا عن جهته فاعملوا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبعّض هذا الباب، ويخرجه من حدّه إلا أن ما حكى كلاما من كلام متعالي البخلاء، وأشقاء العلماء، كسهل بن هارون، وأشباهه.³

صدق الجاحظ في تحديده لأسلوب كتابه "البخلاء"، قد كان أمينا في نقله، مخلصا في تعبيره، ثقة في وصفه الأحوال والظروف والأوضاع والطبقات والأشخاص.

"فالكاتب مؤنس في جده وهزله ومفيد بعلمه وفنه ومتقف بأفكاره وعمق خبراته، ومروح عن القارئ وكّد الجدّ وأتعاب الحق، فالأذن مجاجة والنفس حصنة وفي ذلك فوائد جمة.⁴

بناء على ما تقدم نستشف تجلي السخرية في أدب الجاحظ عامة، وفي كتابه "البخلاء" خاصة، وهو الذي عرف بروحه الطريفة، ونفسه الساخرة، كيف لا وهو الذي سخر من نفسه وخلقه في أكثر من موضع من مؤلفاته.

¹ رابح العوي، فن السخرية في أدب الجاحظ من خلال كتاب الترييع والتدوير والبخلاء والحيوان، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، 1409هـ/1989م، ص190 وما بعدها.

² المرجع نفسه، ص 194.

³ الجاحظ، البخلاء، ص67.

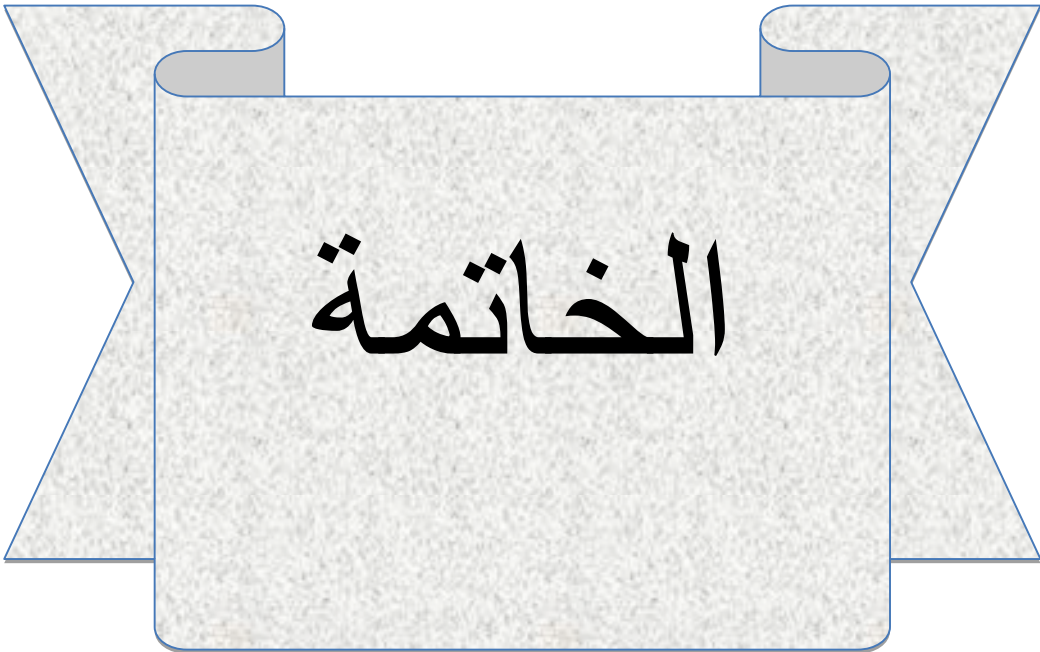
⁴ رابح العوي، فن السخرية في أدب الجاحظ من خلال كتاب الترييع والتدوير والبخلاء والحيوان، ص195.

الفصل الثاني: السخرية في ضوء كتاب "البخلاء" للجاحظ

لقد جمع الجاحظ في كتابه "البخلاء" بين الحكمة الرادعة والسخرية اللاذعة، وذلك برده على الشعبويين الذين حاولوا جهدهم النيل من العرب، مدلسين الحقائق ومحرفين للتاريخ، ومن جملة ما حاولوا طمسه جود العربي وكرمه، وهو الذي عرف ببعده كل البعد عن البخل والشح، تلك الصفات التي هي في الحقيقة من صفات أولئك الشعبويين، ومنه جاء الرد عليهم في كتاب "البخلاء"، وإن كان ظاهره كشف طبائع البشر وحرصهم الشديد، وتصوير البخلاء منهم على وجه الخصوص دون المساس بأعراضهم أو النيل من أشخاصهم، وإنما تصوير تصرفاتهم وعرض لطريقة استخدامهم للمال ومحاربتهم الإسراف والتبذير، تصويراً واقعياً فكاهايا.

احتوى كتاب "البخلاء" على عديد أسماء الأعلام والمشاهير والمغمورين الذين قابلهم الجاحظ وتعرف بهم في بيئته، خاصة في بلدة مرو عاصمة خراسان، وكذلك أسماء البلدان والأماكن وصفات أهلها والعديد من أبيات الشعر والأحاديث والآثار الواردة فيهم.

والحق أن الجاحظ بلغ من سخريته ما لم يبلغه سابقوه، والطريف من أمره أنه لا يوظف السب والشتم، وإنما يسوق تهكمه وسخريته مستعيناً بضروب الجدل والاحتجاج والحوار، على الطريقة الطريفة، وهو في ذلك يعبث بتوظيفه التناقضات التي تجمع بين القبح الحقيقي للبخل، والحسن الذي ادعاه له إذ التمس له الأعذار.



الخاتمة

الحمد لله المعين والموفق لنا على إتمام هذا البحث الذي حاولنا من خلاله إبراز تجليات السخرية في الأدب العباسي، وقد اشتغلنا على كتاب "البخلاء" للجاحظ كنموذج، فكان من أبرز النتائج المتوصل إليها ما يلي:

- خلفت الدولة العباسية دولة بني أمية، واتخذت بغداد حاضرة لها تاركة شئون الحكم للفرس الذين قضوا قضاء مبرماً على الأمويين، وبذلك أصبحوا هم السادة الحقيقيين، فلم يعد العرب يتصدرون مكان السيادة، ولم تعد لهم أرسنقراطيتهم، كما كان شأنهم في العصر الأموي، فقد أبعدوا غالباً عن المناصب الكبرى في الإرادة والجيش، وأصبحوا لا يستطيعون الدخول على الخليفة، إلا إذا لهم الموالي من الفرس، أمثال البرامكة وبني سهل، ممن أمسكوا بزمام الأمور.

- ظهرت نزعة الشعوبية، مما حفز جماعة من علماء العجم وأدبائهم على أن يطعنوا في تاريخ العرب وأمجادهم، وكل ما يتصل بهم من فضائل خلقية ومن خطابة، وغير خطابة منوهين بفضائل الفرس وغيرهم من شعوب الحضارات القديمة، وما اشتهرت به من عمارة وفنون وعلوم، واتخذ ذلك شكل نزاع ضخم.

- لم يقف أنصار العرب صامتين إزاء النزعة الشعوبية، فقد أخذوا يردون على أصحابها، ومن أشهر من اضطلعوا بهذا الرد مدافعون عن العرب الجاحظ في فاتحة الجزء الثالث من البيان والتبيين، وصنع صنيعة ابن قتيبة في رسالة له سماها كتاب العرب.

- السخرية قديمة قدم الإنسان لأنها قد تكون ترويحاً عن النفس أو تسرية عن القلب، أو استنكاراً لما يقع، أو هزواً وتندراً بالخصم.

- السخریات التي ملئت بها كتب الأدب العربي تناولت الغفلة والتغافل، والتناقض والتلاعب بالألفاظ والتهكم بالعيوب الخلقية، والنفسية، والجسدية، والدعابة، والرد بالمثل، والتهكم الاجتماعي والسياسي، وضعف العقل، وغير ذلك.

- ظهرت السخرية فنا واضحاً في مرحلة التحول الحضاري في العصر العباسي، فظلت تستقر وتتشكل حسب طبقات الشعراء والأدباء ومستوياتهم، وشخصياتهم ومدى علاقة نواتهم بمجتمعهم وما يعتريه من تغيرات، فقد ألقت كتب تضمنت أدب السخرية، حيث احتوى بعضها أبواباً خاصة للفكاهة، وأخرى أفردت كاملة مستقلة لهذا الفن وحده، وبعضها كان ينثرها نثراً في ثناياه ليردح بها عن القارئ، ويشير لذلك في منهجه بأنه يخلط الجد بالهزل ليشوق القارئ، ويزيل عنه السأم.

- غلبت على الأدباء العباسيين الفكاهات في نثرهم، وسجلوها في كتبهم مما حصل في مجالسهم وعایشوه بالتجربة، أو سمعوا به فيمن سبقهم روح الفكاهة، حتى أنشأ بعضهم هذه الفكاهات الساخرة من خلال مواقفه الشخصية، أو رسائله ومكاتباته.

- لقد عرف "الجاحظ" -بحق- مجتمعه، وخبر طوائفه، واعترك معها -محذراً رأياً ومعارضاً لآخر- مرة بالعنف والقسوة، ومرات باللين والهدوء طورا بالهجاء اللاذع والذم المقيت وفي أغلب الأحيان بالسخرية المريرة والتهكم الممض، فقد سخر من البخلاء، وكشفهم للناس في قالب فكاهي، حتى لا يلام عليه؛ لأنه يعيش بينهم ويروي نوادرهم، كما هو الحال مع صديقه محفوظ النقاش.

- كان الجاحظ في كتاب "البخلاء" فناً بطبعه اعتمد لونا أساسياً، وهو الذات البشرية، فغاص إلى أعماقها، يستنبط ما في جوانبها من عقد وغرابة وغموض، غرضه من ذلك إثارة تلك الغرابة، وإنما للدلالة على تلك المواقف النفسية والتعقيدات التي كان يعانيها البخلاء في عصره.

وفي الختام نشكر الله سبحانه وتعالى، راجين من الله أن نكون قد أتينا على كل ما يتطلبه واجب الدراسة وما ينال الرضا، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة
المصادر
والمراجع

* القرآن الكريم.

- إبراهيم الأبياري، الموسوعة الشوقية، د.ط، د.ت.
- إبراهيم عبد القادر المازني، حصاد الهشيم، مطابع دار الشعب، د.ط، د.ت.
- إبراهيم وليد عبد المجيد، الشعر الهزلي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط1، 2001م.
- ابن أبي الإصبع العدواني (عبد العظيم بن الواحد بن ظافر البغدادي ثم المصري)، تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق: الدكتور حفي محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، د.ط، د.ت.
- ابن الأثير (نجم الدين أحمد بن إسماعيل الحلبي)، جوهر الكنز "تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة"، تح: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الاسكندرية، د.ط، د.ت.
- ابن حجة الحموي (تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزاري)، خزانة الأدب وغاية الأرب، تح: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دار البحار، بيروت، الطبعة الأخيرة، 2004م.
- ابن رشيق القيرواني، (أبو علي الحسن)، العمدة في صناعة الشعر ونقده، عني بتصحيحه: محمد بدر الدين الحلبي، مطبعة السعادة، ط1، 1907م.
- ابن عبد ربه الأندلسي (أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم)، العقد الفريد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1404هـ.
- ابن قدامة المقدسي (نجم الدين أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن)، مَخْتَصَرُ مِنْهَاجِ الْقَاصِدِينَ، قدم له: الأستاذ محمد أحمد دهمان، مَكْتَبَةُ دَارِ الْبَيَّانِ، دمشق، د.ط، 1398هـ/1978م.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن قيم الجوزية (محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تح: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، ، 1416هـ/1996م.
- ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعي الإفريقي)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.
- أبو تمام (حبيب بن أوس الطائي)، الحماسة، تح: عبد الله بن عبد الرحيم عسيان، أشرف على طبعه ونشره إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، د.ط، 1401هـ.
- أبو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران)، ديوان المعاني، دار الجيل، بيروت، د.ط، د.ت،
- أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، أشرفت على تحقيقه وتصحيحه: لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت، د.ط، د.ت.
- بوحجام محمد ناصر، السخرية في الأدب الجزائري الحديث، مطبعة العربية، د.ط، 2004م.
- الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل)، التمثيل والمحاضرة، تح: عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، ط2، 1401هـ/1981م.
- الجاحظ (عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي أبو عثمان)، البخلاء، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط2، 1419هـ.
- الجاحظ (عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي أبو عثمان)، الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط2، 1996م.
- جميل جبر، الجاحظ ومجتمع عصره، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، د.ط، 1958م.

قائمة المصادر والمراجع

- الحصري (أبو إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني)، زهر الآداب وثمر الألباب، ضبطه وشرحه وعلق عليه وقدم له: يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م.
- الخرائطي (أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاذي السامري)، مساوئ الأخلاق ومذمومها، حققه وخرج نصوصه وعلق عليه: مصطفى بن أبو النصر الشلبي، مكتبة السوادي للتوزيع، جدة، ط1، 1413هـ/1993م.
- الخوارزمي (أبو بكر محمد بن محمد بن العباس)، مفيد العلوم ومبيد الهموم، المكتبة العنصرية، بيروت، د.ط، 1418هـ.
- راجح العوي، فن السخرية في أدب الجاحظ من خلال كتاب التبريع والتدوير والبخل والخيل، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، 1409هـ/1989م.
- سعود بن عبدالله الحزيمي، الموسوعة الجامعة في الأخلاق والآداب.
- سليمان بن محمد الشبانة، الرسوم الساخرة في الصحافة-دراسة تحليلية، شركة العبيكان للطباعة والنشر، الرياض، د.ط، د.ت.
- السيد عبد الحليم محمد حسين، السخرية في أدب الجاحظ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام، الجماهيرية الليبية، ط1، 1397هـ/1988م.
- شوقي ضيف (أحمد عبد السلام)، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف،، بيروت، ط13، د.ت.
- شوقي ضيف أحمد عبد السلام، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف، د.ط، د.ت.
- شوقي ضيف، الفكاهة في مصر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ط، 1969م.
- شوقي محمد المعاملي، الاتجاه الساخر في أدب الشدياق، مكتبة النهضة المصرية، د.ط، 1987م.

قائمة المصادر والمراجع

- صالح بن عبد الله بن حميد وعدد من المختصين، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ط4، د.ت.
- طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، دار المعارف، القاهرة، ط2، د.ت.
- عباس بيومي عجلان، الهجاء الجاهلي صوره وأساليبه الفنية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ط، 1985م.
- عبد الحليم حفني، أسلوب السخرية في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ط، 1978م.
- عبد الغني العطري، أدبنا الضاحك، دار البشائر، دمشق، ط2، 1992م.
- العقاد عباس محمود، مطالعات في الكتب والحياة، المكتبة التجارية، ط12، د.ت.
- الفارابي (أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1407هـ/1987م.
- فاروق سعد، مع بخلاء الجاحظ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط6، 1413هـ/1992م.
- فاعور ياسين، السخرية في أدب إميل حبيبي، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة-تونس، د.ط، د.ت.
- الفراهيدي (أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري)، كتاب العين، تح: د.مهدي المخزومي، د.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ط، د.ت.
- الفيروز آبادي (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب)، القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط8، 1426هـ/2005م.

قائمة المصادر والمراجع

- القاضي الجرجاني (أبو الحسن علي بن عبد العزيز)، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، د.ط، د.ت.
- قحطان رشيد التميمي، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث هجري، دار المسيرة، بيروت، د.ط، د.ت.
- قدامة بن جعفر (بن قدامة بن زياد البغدادي أبو الفرج)، نقد الشعر، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، ط1، 1302هـ.
- كاظم حطيط، دراسات في الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ط، د.ت.
- كامل المهندس مجدي وهبة، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م.
- المؤيد بالله (يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم الحسيني العلوي الطالبي)، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج3، المكتبة العنصرية، بيروت، ط1، 1423هـ.
- محمد بن صالح العثيمين وآخرون، شرح رياض الصالحين، ملخص تحقیقات الحافظ بن حجر والهيثمي والشيخين الألباني والأرنؤوط، مركز التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1425هـ/2004م.
- محمد محمد حسين، الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، دار النهضة العربية، بيروت، ط3، 1389هـ.
- نعمان محمد أمين طه، السخرية في الأدب العربي، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر، مصر، ط1، 1398هـ/1978م.
- النووي (أبو زكرياء يحيى بن شرف)، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، محقق على منهج العلامة محمد ناصر الدين الألباني، مشتملة على تعليقات الشيخ محمد بن

قائمة المصادر والمراجع

صالح العثيمين، حققه وعلق عليه محمود بن الجميل، راجعه طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الصفا، القاهرة، الطبعة الثانية، 1425 هـ/2004م.

- هزام محمد، الأسلوبية منهجا نقديا، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1989م.

- الوطواط (أبو إسحق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي)، غرر

الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة، ضبطه وصححه وعلق حواشيه ووضع

فهارسه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1429هـ/2008م.

فهرس
الموضوعات

إهداء

تشكرات

أ ----- مقدمة

المدخل: العصر العباسي-ملامحه وسماته

1. عصر العباسيين أو العصر العباسي ----- 10
2. التغيرات الأدبية في العصر العباسي----- 14
- 1.2 أغراض اللغة ----- 14
- 2.2 المعاني والأفكار ----- 15
- 3.2 الألفاظ والأساليب ----- 15
- 4.2 النثر المحادثة أو (لغة التخاطب) ----- 16
3. سمات المجتمع العباسي ----- 17

الفصل الأول: السخرية وتجلياتها في النثر العباسي

1. مفهوم السخرية والفكاهة ----- 20
- 1.1 لغة ----- 20
- 2.1 اصطلاحا ----- 23
2. علاقة السخرية بالهزاء والتهكم والكوميديا ----- 27
- 1.2 الهزاء ----- 27
- 2.2 التهكم ----- 29
- 3.2 الكوميديا ----- 33
3. أسباب السخرية ----- 33
- 4.أساليب السخرية وصورها ----- 35
5. وظائف السخرية----- 40
6. مضار السخرية ----- 42

7.	النثر العباسي	43
8.	تطور السخرية والفكاهة في العصر العباسي	45
الفصل الثاني: السخرية في ضوء كتاب "البخلاء" للجاحظ		
1.	الجاحظ (عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي أبو عثمان)	48
2.	تأثير البيئة على أدب الجاحظ الساخر	54
1.2	البيئة العامة	54
2.2	البيئة الفكرية	55
3.	البخل والشُّحّ	56
4.	تجليات السخرية في كتاب "البخلاء"	67
الخاتمة		
77		
قائمة المصادر والمراجع		
80		
الفهرس		
87		